على ضفاف بحيرة الهايدبارك

(مذكرات طالبة سعودية في بريطانيا)

على ضفاف
بحيرة الهايدبارك

(مذكرات طالبة سعودية في بريطانيا)

مرام عبدالرحمن مكّاوي

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مكاوي، مرام عبدالرحمن أحمد

على ضفاف بحيرة الهايدبارك./ مرام عبدالرحمن أحمد مكاوي.
- الرياض، ١٤٢٧هـ

١٠٦ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٥-١١٨-٥٤-٩٩٦٠

١- المذكرات الأدبية أ- العنوان

ديوي ٨١٨,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٧/ ٦٠٠٥

رقم الإيداع: ١٤٢٧/ ٦٠٠٥

ردمك: ٥-١١٨-٥٤-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

إهداء

إلى من منحاني حبهما الكبير..

وأوليـاني من اهتـمـامـهـمـا ورعـايتـهـمـا الشيء الكثير..

وكانت ثقتهما الغالية سبباً في أن أحلم.. أُحلِّق.. وأطير..

وفي البـدء.. كـانـا قـد علَّمـاني.. كـيف الحرفُ مع الحرفِ.. كلمةً يصير..

إليكما..أبي وأمي..

بعضاً من خربشاتي على سبورة الحياة..

مرام

■ مقدمة ■

ذات يوم.. حينما كنت مراهقة.. صبيةً حائرة.. قررتُ أن أكتب مذكراتي أو يومياتي بشكل غير منتظم. كنت أنوي أن أسجل الأحداث الاستثنائية أو المميزة التي تمر بي، ويبدو أن شيئا ما (لا أذكر ما هو) أوحى إليّ بأنه قد يكون في حياتي ما هو جدير بالتدوين..

بدأت الكتابة لنفسي.. وقررت أن أعتبر دفتر المذكرات صديقةً أبوح لها بأسراري.. أمرٌ تحتاجه فتاةٌ في سن المراهقة بشدة.. حين تشعر بأن الدنيا كلها ضدها.. وأنها وحيدة.. قلقة ومترددة.. فلا بد أن يكون لها صديقة مخلصة.. فإن لم تجد واحدة بتلك المواصفات.. اخترعتها!

وبالرغم من أنني كنت ولا أزال محاطة بالكثير من الأهل والمحبين إلا أنه ما زالت ثمة أشياء يود أن يحتفظ بها المرء لنفسه، إما لأنها خاصة جداً.. أو لأنه يشعر بأن الآخرين ربما لن يكونوا معنيين بها.. وهذا هو السر الذي يفسر

استمراري في كتابة يومياتي من حين لآخر على الرغم من أنني نضجت ودخلت عالم الكبار وصرت كاتبة أسبوعية رسمية في إحدى أشهر الصحف السعودية.. وصديقتي التي اخترعتها كان اسمها (شهد).. وما زلت حتى اليوم أبدأ الكتابة في كتيباتي الصغيرة مبتدئة بعبارة (عزيزتي شهد)..

في البداية كانت مذكراتي في الغالب تشكيّاً من هذا العالم الذي يتجاهلني ولا يفهمني ولا حتى بعض أهلي أحياناً.. وطبعًا لن يخلو الأمر من التشكك مراتٍ فيما إذا كانوا فعلا أهلي! ويبدو أن هرمونات النمو لا تعبث بأجسادنا فقط آنذاك.. بل بعقولنا أيضاً. واليوم وأنا أعود لتلك الكتابات أضحك كثيراً على نفسي.. وأعود لأتخيل نفسي كيف كنتُ قبل حوالي عشر سنوات فقط وهي فترة قصيرة من عمر الزمن.. لكن عشر سنوات لتتحول مراهقة إلى امرأة ناضجة تتضمن ولا شك الشيء الكثير..

حين أعود لتلك الوريقات الصغيرة تتباين مشاعري.. فأحيانا أضحك على نفسي وعلى جنوني وحمقي وثورتي.. وأحيانا آسف على لحظات حزينة ذقت فيها طعم دموعي المرة وحدي.. وأحياناً أشعر بالعجب لأنني في ذلك العمر كانت لي بضعة آراء عميقة في الحياة على الصعيد السياسي أو الاجتماعي لا أزال أعتز بها إلى اليوم.. ومراتٍ أخرى أشعر بالدهشة والخجل لأنني

أعجبتُ بشخصيات (بل وأنشدتُ فيها شعراً!) تبين لي فيما بعد أنها ليست جديرة بالإعجاب إطلاقاً.. ومن اتخاذي مواقف عجيبة تجاه بعض القضايا العامة أو الخاصة.. لكن يشفع لي أن وسائل الاطلاع والمعرفة والأخبار.. لم تكن آنذاك كما هي اليوم.. فكثيرٌ من الحقائق كانت غائبة أو مُغيبة..

تغيرت يومياتي بشكل كبير بعد أن انتقلت للعيش خارج السعودية، فقد قررت أن أجعل منها ليس فقط تسجيلا لوقائع وحوادث شخصية لن تهم أحداً غيري.. وإنما أن تكون تسجيلا لتجارب قد تكون خاصة إلا أنه يمكن الخروج منها بموضوع عام يهم المجتمع حيث تكون هي الشاهد في القضية.. إذ تتضمن تسجيلا لأفكاري وآرائي وانطباعاتي نتيجة لما يقع معي من أمور لها دلالاتها على الشأن العام في بلدي أو العالم في هذه اللحظات التاريخية من عمر الزمن..

والحقيقة أنه في بلد كبريطانيا يمتاز بالثراء من كل النواحي المادية والثقافية والبشرية والتاريخية والسياسية فإن هناك دائما شيئاً جديداً يحصل لنا.. ودرساً جديداً نتعلمه.. وخبرة (سيئة أو جيدة) تضاف إلى رصيدنا من الخبرة في هذه الحياة.. وكثيراً ما تطرح عليّ بريطانيا أسئلة صعبة، وتدخلني في مقارنات لا نهاية لها مع هذه الدولة التي كانت ذات يوم امبراطوريةً لا تغيب عنها الشمس..

حين حضرت للدراسة في إنجلترا قبل أربع سنوات تقريباً، كنت خائفة، مترددة، لعدة أسباب، فهذه هي المرة الأولى التي أغادر فيها البيت لأعيش وحدي في بلد آخر وقارة أخرى وثقافة مختلفة تماماً، كما أنني سألتحق بنظام دراسي جديد ومختلف، وكنت أخشى ألا أبلي بلاء حسنا فيه. إضافة إلى أنه كان من سوء حظي (أو حسن حظي كما اكتشفتُ لاحقا) أن غادرت بلدي في توقيت صعب.. حيث إن العالم كان يغلي على فوهة بركان، والحرب تلوح في الأفق.. وبريطانيا حليفة أمريكا الأولى بلا منازع.. وأنا فتاة مسلمة عربية وسعودية في بلد تنوي حكومته شن حرب على دولة جارة شقيقة في منطقتي.. كنتُ أعرف بأنها ستكون أياما مليئة بالكثير من كل شيء.. ولهذا لم أتردد في أن أسجل يومياتي بانتظام وقد استهلكت الكثير من الكتيبات على غير العادة لأنه غالبا ما كان هناك ما يستحق الكتابة عنه.

ومن هذا الكثير الذي كتبتُ عنه انتخبت ثماني عشرة قصة وقعت أحداثها أثناء دراستي للماجستير ما بين (سبتمبر ٢٠٠٢ م - سبتمبر ٢٠٠٣ م) حينما كنت أسكن في بلدة صغيرة يمكن اعتبارها ضاحية من ضواحي لندن اسمها (هاتفيلد) في مقاطعة (هيرتفوردشاير).. عشت فيها تجربة قصيرة نسبيا لكن مميزة جداً.. وقد فضلتُ أن أنشرها لتعبر عن آرائي وانطباعتي آنذاك وباللغة ذاتها والأسلوب ذاته اللذين استخدمتهما يومها.. رغم حصول الكثير من المتغيرات لي وللعالم خلال السنوات

الثلاث الأخيرة.. وخاصة بعد كتابتي في الوطن.. وعودتي إلى بريطانيا لدراسة الدكتوراة وذلك لكي تكون تسجيلاً أقرب إلى الواقع عن تلك المدة.. وآمل أن يجد فيها القارئ أو القارئة.. متعةً أو فكرة أو فائدة..

كما ضمنت كتابي (في الملحق) مقالين نُشِرا لاحقاً في صحيفة الوطن لمناسبتهما لموضوعات الكتاب من جهة.. ولأنني استوحيتهما من بعض قصصه ومن حياتي في بريطاني في تلك المدة من جهة ثانية.

أخيراً أود أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من أسهم في أن يرى كتابي هذا النور.. فهناك شقيقتي الكبرى ظلال (التي ستشاركني بعض التجارب الجميلة في هذا الكتاب) والتي شجعتني على أن أكتب وأنشر.. والأستاذ:/ مصطفى الأنصاري على ملاحظاته حول الكتاب وتشجيعي على نشره ومساعدته بهذا الخصوص.. و"**مكتبة العبيكان**" على طباعتها لكتابي وإخراجه بهذه الصورة..

والسلام من الله خير تحية،،

مرام عبدالرحمن مكّاوي

نوتنجهام- إنجلترا

صفر ١٤٢٧هـ - مارس ٢٠٠٦م

Maram_Meccawy@hotmail.com

■ عدنا.. يا بريطانيا.. ■

والعود أحمد!

بريطانيا.. ذلك البلد الذي أكن له مشاعر خاصة؛ لأنه ببساطة البلد الذي أبصرت فيه النور ذات شتاء.. وقرأتُ في ما مضى قولا مأثورا يقول: "إن من علامات كِبر النفوس، أن تكون إلى أرضها تواقة وإلى مسقط رأسها مشتاقة".

والحقيقة أن ذكريات الطفولة الأولى فيها جميلة أيضا، فعلى الرغم من الظروف الصعبة التي مر بها والديَّ هناك، إلا أننا -نحن الأطفال- لم نشعر بها لصغر سننا. وهكذا كانت بريطانيا بمقاطعاتها المختلفة: إنجلترا.. ويلز.. واسكتلندا، تتمثل في ذاكرتي دوما بمساحات لا متناهية من الخضرة، وبجو بارد يصبح رائعا أكثر ما يصبح حين تثلج الدنيا، ونلعب حتى نتعب وسط الثلوج البيضاء. وتتمثل كذلك في صور جيراننا من الأطفال، وفي مدرستنا الجميلة، والحفلات الممتلئة بالحلوى والكعك والهدايا، كلها ذكريات جميلة وعزيزة على النفس.

هذه المرة عدتُ لبريطانيا بعد غياب طويل لأعيش فيها، أتيت لأدرس بها وأعيش مدة سنة كاملة، فور تخرجي من الجامعة، وذلك لدراسة الماجستير.

وصلتُ مع والدي وأنا اشعر بالخوف والتردد، أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، ونظرا لأن البلدة التي سأعيش فيها (هاتفيلد) كانت لا تبعد عن العاصمة الرائعة لندن سوى نصف ساعة بالقطار، وهكذا قضيت مع والدي أياما طويلة، ونحن نذهب إلى لندن ونعود منها، ريثما تنتهي إجراءات التسجيل والسكن.

كنت أتفحص العاصمة البريطانية، محاولة اكتشافها من جديد، اكتشافها كشابة في الثانية والعشرين قادمة من الشرق الأوسط، الذي كان يومها يغلي على فوهة بركان، فنذر الحرب على العراق تلوح في الأفق. ولندن واحدة من العواصم الدولية، التي تطبخ فيها المؤامرات، وتتخذ القرارات، حتى وإن كانت أمريكا هي الحاكمة بأمرها، وسيدة الكون في عصرنا، فهي لا تستغني أبدا عن الحكمة البريطانية.

تجولت في لندن ومعالمها، أكثر من مرة، زرت (ببغ بن) و(منستر آبي)، وشاهدت القلعة، وبرج لندن، وأعتقد أنني مررتُ أيضاً بقصر (باكينغجهام)، وزرت الشارع العربي (إدجور رود) كذلك. وفي هذا الشارع، سينتابك -غالباً- شعوران متناقضان،

الأول أنك تسعد برؤية محلات تحمل لوحات عربية، وتسعد أكثر بتذوق الطعام العربي، وخاصة الشاورما الحلال، وستبدو لك - لندرتها في هذا البلد- ألذ ألف مرة من تلك التي تأكلها في بلدك. على الرغم من أنها دسمة للغاية، ورغم أن ثمنها يصل إلى ثمن أكثر من عشرة "سندوتشات" شاورما على كورنيش مدينة عربية ساحلية كجدة!

الشعور الآخر الذي قد ينتابك هو الغضب، الخجل أو الضيق من العرب. فالعرب هم العرب، في القاهرة، بغداد، بيروت، الرياض، أو حتى في قلب لندن. فالاستعراض السخيف، ومغازلة الفتيات، والتحديق في النساء، والغش في الأسعار (أو لنقل المبالغة فيها)، وإضاعة الوقت في الحديث، هو السمة السائدة في ذلك الشارع. الشيء الوحيد الذي يمكن أن أعده مفيداً هناك، في ظل غياب مكتبات عامة عربية، أو معارض فنية، أو منتديات فكرية (إلا اللهم من دعاية عن العرافة العربية التي تكشف البخت وتزوج البنات) فإن وجود المكتبات العربية التجارية أمر جيد. فبالرغم من أنها تحفل بكتب الإثارة والجنس، كما تجد فيها كتب الفتن الطائفية والعقدية، بالإضافة إلى الكتب السياسية الصفراء، وكتب التشهير والابتزاز، ومجلات وجرائد المعارضات العربية (أو بالأصح مناشيرها)، إلا أنه

بالرغم من ذلك فهناك كمية لا بأس بها من الكتب والروايات الجيدة، والتي تمنع في الوطن العربي بلا حق أحياناً. أما أنا شخصيا فقد كان يسعدني فيما بعد أن أذهب إلى (إدجور رود) كل شهر، لشراء مجلة (العربي) الكويتية.

بعد "إدجور"، كنا عادة ننهي جولتنا في الهايدبارك، هذه الحديقة الأسطورة التي لو لم يكن في لندن مكان ترفيهي سواها، لكانت وحدها كافية. خضرة ممتدة، حديقة نظيفة مع خدمات عامة متوسطة، ولكنها تفي بالغرض، بحيرة جميلة تمنحنا فرصة مزاولة رياضة مائية حين يكون الجو صحواً. ومكانٌ مثاليٌ للقراءة، والنزهة، بإمكان الأطفال أن يركضوا هنا حتى يتعبوا، وأن تلعب العائلة الكرة بلا قيود، وأن يسترخي مدمن القراءة ويغرق فيها حتى أذنيه، أو حتى يلجأ المرء فقط للراحة والتصالح مع نفسه ومع الطبيعة. وفي الحديقة وجود أمني، يحفظ الأمن بذكاء وحزم، وفي الوقت نفسه لا يزعج الزوار والمرتادين.

في الهايدبارك، كنت أشعر بفداحة وضعنا في العالم العربي، فكم من دولة عربية فيها حديقة على هذا النحو؟ حديقة مجانية وللجميع؟ في دنيا العرب، كل شيء قابل للبيع والاستثمار، بحثا عن الربح المادي، أما الثقافة والفنون، والترفيه

المجاني، فهي ليست من أولوياتنا. لقد هُدمت آثارٌ تاريخيةٌ، ومعالمٌ أثرية لتنشأ مكانها أبراجٌ تجارية، كما يُحجب البحر بأسوار عالية، وقد يتحول لأملاك خاصة محظورة، أو في أحسن الأحوال شاليهات على المرء العادي أن يعمل طول العام، حتى يكون قادرا على دفع ثمن ليلة أو بضع ليال فيها! تُرى هل إنشاء حديقة جميلة ونظيفة، ومجانية، أمرٌ بالغ التكلفة بحيث لا نستطيع تحمله؟ أم أن الرفاهية والمتعة البسيطة للناس لم تصبح بعد أولوية لأي حكومة أو بلدية عربية؟

■ حرية![*] ■

أكثر ما لفت نظري في الهايدبارك كان ركن الخطباء، ذلك المكان الذي يعطى المرء فيه الحرية الكاملة ليقول كل ما يشاء، دون تدخل من أحد! بإمكانك أن تسخر من الملكة، ومجلس اللوردات، وحكومة بلير بل وكل حكومات الدنيا هنا دون خوف! فما دام الأمر مقتصراً على الحديث فلا ضير.الخطباء كانوا من مختلف الجنسيات، والأشكال، والخلفيات، فهذا قسيس يدعو إلى العودة إلى طريق السعادة، ويبشر برسول المحبة. وذلك معتوه يلقي نكتا ماجنة ويأتي بحركات بذيئة، وآخرون يبدون كما لو كانوا بلا قضية ولا يمكن أن تفهم ماذا يريدون على وجه التحديد.

ولما كانت حرية التعبير، كائنا مطاردا، في معظم دول العالم الثالث، ممن ولدوا وفي فمهم ماء، أو لا يقدرون على فتحه إلا عند

(*) نشرت مقتطفات من هذه القصة في مقال في صفحة (نقاشات) في صحيفة الوطن السعودية تحت عنوان (العرب يفضحون أنفسهم في الهايدبارك واليهود يخططون لغدهم).

طبيب الأسنان، فكان من الطبيعي أن يمتلئ بهم هذا المكان أكثر من أهل البلاد، أو جيرانهم، الذين ولدوا وهم يتكلمون، وينتقدون، ويتظاهرون. والذين يعرفون جيداً القنوات التي تمر بها حلول مشاكلهم، فلا يتعبون حبالهم الصوتية في الصراخ والعويل. أما المحرومون من نعمة الحرية -وما أكثرهم- فهم مستعدون أن يبحوا أصواتهم، فقط ليشعروا بطعم الحرية اللذيذ، فقد صمتوا حتى استجار الصمت منهم! وأستطيع القول أن ٩٠٪ من الخطباء كانوا عرباً أو مسلمين، وهنا شعرتُ بالفضيحة! ليس لأنهم يتحدثون فحسب ولكن للكلام الذي كانوا يقولونه، وللأسلوب الذي كانوا يتبعونه. هذا الأسلوب المملوء بالتحقير للآخر أيا كان، والغارق في العصبية، وشتم دين القوم، وتصفية الخلافات المذهبية والسياسية بين العرب والمسلمين أنفسهم. بالإضافة إلى الهيئة الرثة، والملابس غير المتناسقة التي يرتدونها، كان بعضهم يبدو كالمهرج. وكنت أعتقد أن هذا كفيل بأن يفقدنا أنصاراً بدل أن يشرح قضية. فمن يرغب أن يستمع -ناهيك أن يقتنع- لشخص يلوح بالقرآن بينما يتفوه بمختلف أنواع السباب؟!

قال أحدهم -وهو مسلم آسيوي كما يبدو-: "أيها الإنجليز لقد أتينا بلادكم.. أخذنا وظائفكم.. سكنا في بيوتكم.. وحتى أميرتكم أحبت واحدا منا (يقصد ديانا وعماد الفايد).. وقريبا

نستولي على بلادكم!" وعبثاً أحاول أن أجد فائدة تُرجى من قول مثل هذا الكلام خاصة بعد مرور عام فقط على أحداث سبتمبر!.

آخرون كانوا يحاولون الدفاع عن العراق، عن طريق الدفاع عن صدام، وشتم الحكومات الخليجية والعربية. ومن يتحدث عن فلسطين، فهو يشتم اليهود كجنس ودين، ويخلط الدين بالسياسية، بالأحقاد الموروثة، دون أن يصل إلى لب القضية وهو أن هناك احتلال باطل، ودولة غير مشروعة، وهجرة مرفوضة لغرباء إلى أرض ليست لهم، وتشريد أهلها الأصليين. وحدها فتاة فلسطينية عشرينية، كانت تبدو جميلة، مثقفة، وتملك أسلوباً جيداً في الحوار والإقناع، كانت هادئة، ومنطقية وهي تتحدث عن قضية بلادها.

خرجت يومها بقناعة أن العرب وحدهم من يحفلون بهذه الخطابات، أما أهل البلاد وغيرهم وخاصة اليهود والصهاينة، فهم مشغولون في مكان آخر؛ إذ يخطط هؤلاء ويفكرون كيف يهجمون على الوطن العربي، وكيف يقضمون المزيد من الأراضي العربية، ويقتلعون أكبر عدد من أشجار الزيتون، فيما هم يخدروننا بأوهام السلا، والعرب وحدهم مشغولون بالكلام، فهم كانوا وسيظلون أمة الكلام.. وعلى دينهم السلام.

■ مظاهرات ١٠١ ■

من الأشياء المميزة التي شاهدتها أمامي لأول مرة في حياتي كانت المظاهرات! أجل فقد وصلنا هناك في شهر سبتمبر عام ٢٠٠٢م وكانت الدنيا تغلي كما ذكرت، لكن المظاهرة الأولى التي شهدتها كانت عبارة عن حدث داخلي بريطاني. كانت مظاهرة متعلقة بقانون مثير للجدل حول منع الصيد في الريف البريطاني، وهي رياضة النبلاء الأزلية في هذا البلد، وتوفر دخلاً جيداً كذلك للمزارعين وملاك الأراضي التي يستخدمها النبلاء في صيدهم. والحقيقة أن المظاهرة استمرت يومين في اليوم الأول كانت مجرد تجربة، كانت صغيرة لكن بدت لي مدهشة! وحرصت على أن أقف وسط المتظاهرين وألتقط لي صورة معهم. أما في اليوم الثاني فقد كانت المظاهرة كبيرة.. كبيرة جدا، خاصة لفتاة قادمة من الوطن العربي. والذي أثار إعجابي عدة أمور: منها شدة التنظيم، فلا فوضى ولا ارتباك، والشرطة هناك لحماية المظاهرة وتنظيمها وليس لقمع الناس وضربهم، وإطلاق الكلاب وخراطيم المياه

عليهم. كذلك بدت أفكار المتظاهرين خلاقة، في الصور التي رفعوها وكذلك في اللافتات والشعارات، وحتى في الألبسة. كنتُ ووالدي نظن أنها مظاهرة من أجل الحياة البرية وضد الصيد، ولذلك شجعنا المتظاهرين، ودعمناهم بالتلويح وعلامات النصر، أردنا على ما أظن أن نرسل إشارة إيجابية بأننا أيضا -بصفتنا عرباً- نحب البيئة والطبيعية، وضد القتل والعنف حتى مع الحيوانات. لكن المضحك أننا اكتشفنا بعد مرور أكثر من أسبوع، وعن طريق الصدفة، أننا كنا في المظاهرة الخطأ، فقد كانت تلك المظاهرة مع الصيد، وضد سن القوانين التي تحُرم -بالأخص- صيد الثعالب، لأن هذا يحرم الريف، من مكاسب مالية، يجنيها من عملية الصيد هذه، بطرق مختلفة، وهكذا لا عزاء للجاهلين، وبحسبنا أن نقول إننا قدمنا من الوطن العربي العزيز!.

■ وقلتُ: "الفلسطينيون ليسوا هنوداً حُمراً!"(*) ■

كان يوم سبتٍ مميز، فقد عرفنا بأنه في هذا اليوم ستكون هناك واحدة من أكبر المظاهرات التي عرفتها بريطانيا خلال النصف الثاني من القرن العشرين. وكانت هذه المظاهرة هي الشرارة التي ربما أطلقت المظاهرات في طول الدنيا وعرضها، والتي ستستمر إلى ما بعد العدوان على العراق. أجل فتلك المظاهرة رفعت شعارين (الحرية لفلسطين) بمناسبة مرور ثلاث سنوات على الانتفاضة المباركة الثانية. والشعار الثاني (لا لضرب العراق). بصراحة لم نكن نرغب في الذهاب لمشاهدة هذه المظاهرة، لأننا لم نتعود على شيء كهذا من قبل. لكن على أي حال فقد كنا في لندن، وبينما نحن نجلس في مترو الأنفاق، فوجئنا بسيدات من عجائز بريطانيا يتحدثن عن المشاركة، ويبحثن عن لوحات لرفعها! عندها نظرت ووالدي لبعضنا وشعرنا بأن من المخجل أن تتظاهر عجوز بريطانية ضد

(*) نشرت هذه القصة بصفتها واحدة من ثلاث قصص عن التسامح في العدد ١٢١ من مجلة المعرفة (ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - مايو ٢٠٠٥م)، تحت عنوان (ثلاث قصص تسامحية: حين تحدثنا بلغة آدم وحواء).

ضرب أرض الرافدين ويحجم مواطنان عربيان حتى عن الذهاب لرؤية ما يفعله القوم! تبعنا السيدات يدفعنا فضول لنعرف ماذا سيفعلن، فوجدنا أنفسنا في مكان التجمع وهو محطة (Embankment).

ومن هناك سار الناس باتجاه حديقة الهايدبارك، ومروا (بويست منستر آبي)، مقر الحكومة البريطانية. شعرت بالحماسة تدب في أوصالي وأنا أرى هذه الجموع المتباينة في كل شيء تتوحد وتتجمع من أجل قضايا عربية كقضية العراق أو فلسطين. إنها الفطرة الإنسانية السليمة التي لا تقبل الظلم أيا كان الظالم وأيا كان المظلوم، وهو حب السلام وكراهية الحروب العدوانية (وليست الحروب التي تقوم لاستخلاص الحقوق) التي لا تجلب عبر التاريخ البشري الطويل إلا الدمار للإنسان والأرض والهواء والطبيعة.

وخلال مشاهدتنا للمظاهرة التي استمرت حوالي سبع ساعات ما بين مشي وتوقف، أنشأنا عدة صداقات مع مواطنين إنجليز وآخرين أوربيين، فهذه معلمة منزعجة من صورة المسلمين في الإعلام، وقد زارت مخيمات اللاجئين في لبنان وصممت على أن تحاول من موقعها كمعلمة شرح القضية للمجتمع البريطاني، وهذا رب أسرة يقاطع المنتجات الأمريكية، في حين يتصدى بعض كتابنا العرب المسلمين، لحملات المقاطعة،

متذرعين بأمور شتى. وذلك شاب فرنسي، يبتسم ويناصر فلسطين ويقول (إن شاء الله) بلكنة أعجمية جميلة.

كان يوماً غير عادي وأذكر جيدا بعض هتافات المتظاهرين يومها:

(George Bush Terrorist)

(جورج بوش.. إرهابي!)

(BUSH and HITLER are the Same ..The only Difference is the Name)

(جورج وهتلر سواء.. الفرق فقط الأسماء!)

(No War For Oil)

(لا لحرب من أجل النفط)

(Not Under My Name)

(لا لحرب تشن باسمي كمواطن)

هذه المظاهرات تمت في ذكرى مرور عام على أحداث سبتمبر التي استعدت العالم علينا، وكونها تقع في بريطانيا، قلب أوروبا التي يعرفها العرب، ولا يتفاءلون كثيرا بتجاربهم معها، فهناك طبخت أقذر الوصفات السياسية للشرق الأوسط، وفي بلد هو حليف أمريكا الأول، فقد كان أمرا مثيرا للدهشة وللإعجاب معا. وجعلني أدرك أن الشعوب قد تكون مظلومة بقرارات حكامها، حتى في الدول الديمقراطية.

خرجتُ من مشاهدتي للمظاهرة بدروس عديدة، منها أن العالم المتحضر يعبر عن رأيه بالسلم لا بالإرهاب، وكيف يحمي القانون الناس، وبالتالي يحترم الناس القانون، إنها علاقة تبادلية ذات بعدين. عرفتُ كيف أن البلاد تصنع المواطن الصالح، بتحقيق العدالة والتنمية والأمن والرخاء مستندة على النظام والقانون.

شيءٌ آخر جميل عن الشعوب في العالم الغربي، وهي أن الناس في هذه البلاد، متى آمنت بقضية فهي مستعدة لأن تفعل شيئا بشأنها، حتى لو كان مجرد التعبير عن الرأي، ورفض الظلم والعدوان.

أدركتُ كذلك لماذا يخسر المسلمون والعرب أنصارهم أحيانا.. ففي هذه المظاهرة لم يستطع بعض العرب والمسلمين إلا أن يتحزبوا ويتعصبوا! فأعلام بعض الأحزاب وشعاراتهم رفعت، كما تصر بعض الجماعات الإسلامية، عن أن تنعزل عن جموع المتظاهرين، وتردد الشعارات الإسلامية، وهذا أمر جميل لو كنا في بلد عربي أو مسلم، وكان المتظاهرون أو الساسة، سيفهمون ما يقولون! ولو كانت القضية عربية أو إسلامية خالصة. لكن القضية إنسانية وعالمية، والمتعاطفين معها، هم ضد الظلم والهيمنة والإرهاب.

فحين يمشي المرء ما يقارب السبع ساعات، ويصرخ بكل قوته من أجل قضية ما يراها عادلة، وفجأة يجد نفسه وسط متظاهرين

حولوها إلى مظاهرة دينية، لدين لا ينتمي إليه، فلا شك أنه سيشعر بالاستياء أو بخيبة الأمل. أنا مسلمة فخورة بديني، ولكنني أدعو فقط إلى تحسين طريقة عرض القضية، مراعين الحال والمقام، لأنني -أنا شخصياً-، كنت سأشعر بالإحباط، لو أنني كنت أتظاهر من أجل قضية إقليم "الباسك" مثلا، وإذا بي أفاجأ بالمتظاهرين يقولون" الأب، الابن، الروح القدس". لا بد أن نتعلم كيف يفكر الآخر، ونخاطب الناس على قدر عقولهم لنكسبهم، وقديما قيل" أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم".

وصلنا للهايد بارك في النهاية بعد أن انتهت الخطب، وبينما نحن نلتقط بعض الصور في الحديقة المكتظة بالناس رجالا ونساء وأطفالا، طلبنا من أحد المارة أن يلتقط لنا صورة، وإذا بهما رجل أمريكي وزوجته. وقد كانا في حالة ذهول من هذه المظاهرة ضد بلادهم، ورئيسهم، وبهذه الحدة هنا في لندن! حليفتهم الأولى والكبرى. وجرنا حديث طويل عن السياسة الأمريكية عندما عرفوا أننا من السعودية، وعرفنا أنهم من كاليفورنيا، وكان نقاشاً مثيراً. تحدثتُ مع الرجل الخمسيني، الذي كان يبدو مصدقاً لكل ما تقوله حكومة بلاده، وحاولت أن أشرح بحماسة منقطعة النظير موقف العرب والمسلمين، وكيف أن تصرفات أمريكا تحول الناس المعتدلين أمثالنا إلى متطرفين، فأنا مثلا زرت أمريكا مرتين في

أوائل التسعينيات للسياحة، وكنتُ أعتقد أن الشعب الأمريكي ألطف بكثير من بعض الشعوب الأوروبية، وقد شكرني على قول ذلك، ولكن الأحداث الأخيرة جعلتني أقاطع المنتجات الأمريكية مثلاً بشدة. وجرنا الحديث عن فلسطين، وضحايا العنف الإسرائيلي، فحدثني عن أطفال إسرائيل الذين تقتلهم حماس! ووصلنا إلى نقطة قال فيها: (اسمعي لا يجب أن تحاكموا إسرائيل على احتلالها لفلسطين الآن وتطالبوا بإعادة الأراضي.. أنا أمريكي وقد تكون أرضي كانت ذات يوم أرض هندي أحمر.. فهل يحق له المطالبة بها بعد قيام دولة أمريكا؟) وأجبت سريعاً: (ولكن الفلسطينيين ليسوا هنودا حمرا ولن يكونوا.. وهم مدافعون عن أرضهم وشرفهم حتى آخر قطرة دم). استمر الحديث قرابة ساعة أو أكثر ونحن واقفون، وكنت ألمح في عيني هذا الرجل إعجابا بمنطقي، رغم معارضته لي، وفي النهاية انتهت المناقشة وقال لي قبل أن يغادر: (لقد نجحت في تسجيل نقاط جيدة هنا يا فتاة!) كانت زوجته أخبرت أبي بأن لهما ابنة في عمري، ويبدو أنه كان ينظر إليَّ من منظار أبوي أيضاً.

كلماته أفرحتني، ليس لأنها تضمنت ثناء على شرح أفكاري بلغة أجنبية إلى الطرف الآخر للمرة الأولى وبهذا العمق، بل لأنني شعرت بأنني فعلت شيئا لفلسطين، فنحن نكبر بفلسطين ولا تكبر هي.. وإنما تزهو.. بنا.

■ فارسة.. للمرة الأولى! ■

الحرية الجديدة التي وجدتها في هذا البلد، فتحت أمامي آفاقا رائعة للحلم والخيال، صرت أتخيل بأني قادرة على فعل كل شيء، وأي شيء دون رادع إلا من ديني وضميري وقناعاتي، وكم هو رائع أن يحس المرء بالتصالح مع نفسه وأنه ليس بحاجة إلى لبس الأقنعة وإلى إخفاء رغباته وطموحاته ومتعه البريئة. لقد أردت أن أجرب كل الأشياء الجميلة التي لم أستطع أن أجربها في بلدي، ويبدو أنني لن أستطيع ذلك أبداً. فبالرغم من الإصلاحات الحذرة في مسألة المرأة في بلادنا على المستوى الرسمي، إلا أنه على المستوى الاجتماعي فتغيير النظرة لها تتم بطريقة أبطأ من السلحفاة! وهذا طبيعي ما دمنا نتحدث عن إصلاح يبدأ من القمة لا من القاع.

كان يوماً جميلاً، ذلك اليوم الذي أردت فيه أن أجرب الانضمام لنادي الفروسية في الجامعة ليوم واحد. وبجهاد وسباق مع الزمن ذهبت مع (جمعية الفروسية)، إلى المضمار

الذي نقوم فيه بالفعل بالتدرب على ركوب الخيل. وهكذا امتطيت فرساً حقيقية، وتحكمت بها وحدي فعلا لأول مرة في حياتي. لقد تعلمت كيف أصعد على ظهرها بداية، وهي ليست مهمة سهلة كما تبدو، وكيف أمسك السرج، وكيف أعتدل في جلستي، وكيف أجعلها تسير أو تقف أو تلف، كل ذلك خلال تمرين واحد استغرق قرابة الساعة.

كانت تجربة مخيفة جدا في البداية، وأردت أن أنزل على الأرض بأسرع ما يمكن، قبل أن تبدأ المتعة الحقيقية. سبب الخوف كان ارتفاع الفرس، وصعوبة الصعود على ظهرها، وصعوبة التحكم في مزاجها أحيانا، لكن بمساعدة مدربتي الشابة (لورين) فقد مرت الأمور على ما يرام. واستطعت القيام بذلك، وشعرت بالزهو، فما أجمل أن يكون المرء فارسا، ويشعر بأنه يمتطي مخلوقا رائعا، كالحصان، أو الخيل التي أخبرنا رسول الله ﷺ، بأن الخير معقود في نواصيها إلى يوم القيامة، وأقسم الله بها تعالى في قوله (والعاديات ضبحا).

وصدق المتنبي إذ قال:

أعز مكان في الدنا سرجُ سابح

وخير جليسٍ في الزمان كتابُ

كانت فرسي جميلة، وكانت أنثى اسمها (ريتا)، وقد تمنيت لو أصادقها، ولو أواصل امتطاءها خلال العام الدراسي كله، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. فقد كانت تلك أول وآخر تجربة لي في ركوبها، ومع نادي جمعية الفروسية في جامعة (هيرتفوردشاير). والسبب ضيق الوقت وأعباء الدراسة، إضافة إلى برودة الجو، إذ كنا في بداية الشتاء، وتزامن هذا مع دخول رمضان، كما أنه علينا أن نجد من يوصلنا إلى المزرعة في المرة القادمة، لأن (لورين) لن تكون قادرة على فعل ذلك في كل مرة. ولما كنت غريبة، بل إنني كنت الفتاة الوحيدة غير الإنجليزية التي رافقت المجموعة، مع أن الجميع كانوا لطفاء معي، وأفضل بكثير مما توقعت، فقد تصورت بأنني لن أكون قادرة على الانتظام كما ينبغي خاصة وأنا حديثة عهد بالحياة هنا، بعد غياب طويل، ولهذا فقد انسحبت.

لكنها كانت تجربة رائعة، لن أنساها، وربما أكررها إذا سمحت لي الظروف، لكنني أتساءل هل من الصعب فعلاً، أن يتم توفير نادٍ لتمارس فيه الفتيات في بلادي هذه الرياضة، وضمن الأطر الإسلامية، والتقاليد الاجتماعية المحافظة لبلدنا؟ ألم تجاهد أم عمارة -رضي الله عنها- وهي تمتطي فرساً، وخرجت السيدة عائشة -رضي الله عنها- لمعركة وهي على ظهر جمل؟

■ يومٌ في الحياة الحقيقية! ■

أن أعيش كفتاة في السعودية ليس أمرا سيئا جدا كما يتصور الكثيرون، بل أحيانا قد تشعر الفتاة بأنها أميرة حيث لا تتحرك غالبا إلا مع مرافق، قريباً كان أو سائقاً. ولكنها حياة أشبه بحياة الأسماك في بيئة اصطناعية، حيث الغذاء والأمان والهواء متوافر، وكذلك الرعاية الكاملة والخدمة المستمرة. لا يمكن لأحد أن يشتكي من ذلك، فمادام لم يعرف بيئة أخرى، فهو في الغالب يعيش راضياً، أو قانعاً. لكن إن اضطرته الظروف على أن يعود للعيش في المحيط، عندها يجب عليه أن يبحث عن طعامه بنفسه، وأن يحمي نفسه كذلك، ليس الأمر سهلاً بالمرة، وقد تكون التجربة قاسية أو قاتلة، لكن إن نجا منها فهو يشعر بأنه قد نضج عشر سنوات كاملة، في ساعات!

حدث هذا معي، ففي أثناء خوضي لهذه التجربة المثيرة، بعيدا عن كنف والديّ، بعيدا عن بلادي الآمنة، بعيدا عن سائقنا الذي يحمل المشتريات عنا في السوق، بل يذهب لشرائها أساساً

من دوننا، وبعيداً عن سيارتنا المكيفة المريحة، كان علي أنا أيضا أن أنزل إلى المحيط.. وحيدة.

غادر والدي عائدا إلى الوطن بعد تأمين كافة احتياجاتي الغذائية، وبعد أن بقي معي الفترة الكافية للاطمئنان عليَّ، وللتأكد بأن أموري كلها تجري على أفضل حال. وقد قاومت لوقت طويل بعد ذلك الخروج من الحرم الجامعي، والسكن الجامعي وحيدة. وقد كان أن اصطحبتني بعض الأخوات العربيات معهن ذات مرة، إلى أكبر مركز للتسوق في البلدة، فاستطعت شراء ما نفذ من احتياجاتي الضرورية. لكن جاء يوم كان عليّ أن أذهب وحدي، وكم كان ذلك صعباً!

المشكلة لم تكن في الوصول إلى هناك، بل في العودة! فقد أخذت راحتي في التسوق، دون أن أعمل حسابا، للمال، أو لتواريخ انتهاء المأكولات، والتي كان معظمها قصيراً جداً، أو (وهو الأهم).. في كيفية عودتي للمنزل وأنا محملة بكل هذه الأغراض! المفاجأة الأولى كانت في المبلغ الذي كان عليَّ دفعه، فقد كان أكثر بكثير مما أتصور، ودفعته بسهولة نظراً لوجود بطاقة البنك معي، ولكنني كنت مصعوقة، لأنني لم أحس بأنني اشتريت أشياء ذات قيمة لتصل إلى هذا المبلغ.

عندما خرجت، وأنا مثقلة بأكياس لا قبل لي بحملها، شعرتُ بالتوتر، ركضت نحو موقف الحافلة الذي نزلت فيه، ففوجئت

بأنه لكي أعود عليّ الذهاب للجهة الأخرى. وطبعا كان الظلام قد حل، والسيارات تعبر الطريق مسرعة، وكان مستحيلا عليّ بأغراضي هذه، أن أقطع الشارع ركضاً. فشعرت بتعاسة لا نظير لها، وبدأت الدموع تتجمع.. لأنني أحسست لأول مرة في حياتي، أنني وحيدة وعاجزة، أمام موقف تافه، لكنه بدا لي عظيما، كيف لا؟ ونحن النساء في بلدي، لا نمشي في الشارع وحدنا، ولم يسبق أن قطعت هناك شارعا، والسيارات تمر من قبل.

لكنني قررت أن أتماسك، فالبكاء لن يحل مشكلتي، بل سيظهرني حمقاء، وربما يغري أحدا بسرقتي، فتماسكت، وبدأت التفكير في الحل. وما دمت غير قادرة على العبور للضفة الأخرى، ولا أملك سيارة، ولا أستطيع العودة مشيا، لبعد المسافة (نسبيا) خاصة وأنا لم أعتد على المشي بعد لمسافات طويلة، وكذلك لتأخر الوقت (في الواقع لم يكن متأخرا، كان في حدود السادسة مساء تقريبا، ولكنه خريف إنجلترا، حيث تغرب الشمس في حوالي الساعة الرابعة والنصف أو الخامسة، فإذن عليّ التفكير بطريقة أخرى، فماذا يبقى؟ سيارات الأجرة. تذكرت على الفور، بأنه يوم أتيت مع صديقاتي، علمت بأنه يوجد داخل المركز خط هاتف مجاني، لطلب سيارة أجرة. فدخلت إلى المركز من جديد، بحثت عن الهاتف، استخدمته، وبعد خمس عشرة دقيقة، كانت هناك سيارة أجرة بانتظاري،

حملتني إلى داخل الحرم الجامعي، وقريبا من منزلي. وهكذا وصلت سالمة، وانتهت الأزمة على خير، وشعرت بأنني حصلت على درس مهم، أو دروس، لم أحصل على مثلها، في أهميتها، منذ مدة طويلة. وشعرت بأنني عشت يوما في الحياة الحقيقية، حيث على الإنسان أن يتدبر أموره بنفسه، وأن يستخدم عقله، ويتحلى بالشجاعة، لكي يخرج من المأزق الذي وضع فيه فجأة، بأقل قدر ممكن من الخسائر.

لم يكن ذلك هو الموقف المزعج الوحيد الذي صادفته في بداية حياتي هناك، ففي مرة لاحقة، ركبت الحافلة لأذهب إلى مركز البلدة، فوجدت نفسي في مركز المدينة المجاورة! وأيضا كدت أبكي، ولكنني تماسكت وسألت أحدهم كيف يمكن أن أعود لمدينتي، فقال لي بهدوء. انزلي هنا، وابحثي عن الحافلة العائدة لمدينتك. وفعلت ذلك، وانتهت الأمور مرة أخرى على خير، ولكن بعد لحظات مرعبة أخرى.

لكنني تعلمت الكثير بعد ذلك، من قوانين وأنظمة الحافلات الإنجليزية. درس آخر من بريطانيا.. كيف تركب الحافلة؟ ففي بلادي لا يركب المواطنون الحافلات، أو وسائل النقل العام عموما (إن وجدت)، فالكل هناك لديهم سيارات خاصة.

حقاً إن حياتنا مختلفة عن حياتهم، وكم يتطلب الأمر منا جهدا، لكي نتعود على أبسط الأمور، في بيئة جديدة!

■ ويبقى الإنسان.. هو الإنسان(*) ■

بالصدفة عرفت أن هناك مجموعة من الدورات التي يقيمها اتحاد الطلبة في الجامعة، كانت دورات مجانية لتطوير الشخصية، ويحصل من يحضر أربعة منها على الأقل على شهادة مصدقة، من رئيس الجامعة، ستفيدنا في كتابة السيرة الذاتية، وتعبئة استمارات طلب الوظائف، فقررت التسجيل دون تردد، وقلت لنجرب، فلن أخسر شيئاً.

أول هذه الدورات، كانت دورة تنظيم الوقت، ولم أندم على حضورها أبداً، فقد خرجت منها بتجربة جميلة، وبصداقات جديدة، وإن لم تكن الدورة ذاتها بالمستوى المأمول، ولم أستفد منها بالقدر الذي توقعته، لكن يكفي أنها علمتني أن استخدم، مفكرة يومية. وقد أصبحت هذه المفكرة، التي اشتريتها في اليوم التالي، من ضروريات حياتي، لا استغني عنها، في حل أو سفر،

(*) نشرت هذه القصة بصفتها واحدة من ثلاث قصص عن التسامح في العدد ١٢١ من مجلة المعرفة (ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - مايو ٢٠٠٥م)، تحت عنوان (ثلاث قصص تسامحية: حين تحدثنا بلغة آدم وحواء).

بل تبدو حياتي (مشقلبة) من دونها! وعموما خرجت من الدورات كلها، بشهادة، وبتسلية، وبمعرفة بعض الأمور أكثر عن نفسي.

كانت هذه الدورة الأولى، مكونة من تسعة أشخاص، كل منهم من بلد مختلف: (البرتغال، تركيا، بريطانيا، السعودية، غانا، الصين، الهند). وكان هذا بصدق.. أجمل ما فيها. فجأة وجدت نفسي، أنا المسلمة العربية المحجبة، أتناقش، أحاور وأشارك، وأتعلم، مع أناس من غير جنسي، لوني، أو ديني. وأحدهم، كان شاباً سيخياً هندياً صغيراً، في حدود الثامنة عشرة، كان ضمن مجموعتي، وكان علينا أن نحل بعض التمرينات كمجموعة.

في البداية، تضايقتُ من وجوده، خاصة وهو يرتدي تلك العمة البرتقالية العجيبة! وأخذت منه موقفا، وأحسستُ أنه أيضا يكرهني، طبعاً نظرا للخلفيات الدينية، والتاريخية المتباينة، والمتصادمة، والدموية في بعض الحالات. فهو هندي، وهو سيخي، وكفى! خاصة في هذه الفترة، ففي وقت سابق هذا العام (٢٠٠٢)، حدث اقتتال شديد بين المسلمين وغيرهم، في كجرات وغيرها، من الولايات الهندية.

لقد أخذت موقفا منه، ووضعته في قالب ما، تماما كما يفعل الآخرون معي، كفتاة محجبة. لكن شيئا فشيئا، زالت كل العقد

التاريخية. ووجدت نفسي، طالبة جامعية، وإنسانة، تجلس مع بقية البشر، كل البشر، وتحاورهم بكل هدوء وأريحية. ففي النهاية نحن بشر وسنظل كذلك، من أب واحد، وأم واحدة، من آدم وحواء، والبشر.. كلهم.. عيال الله.

كان (بول) -وهذا هو الاسم الإنجليزي لهذا الشاب الهندي- لطيفاً، مرحاً، وممتلئاً بالحياة. كان في عمر أخي الأصغر محمد تقريبا، وقد ذكرني به، بشقاوته الظاهرة، وكسله البادي فيما يتعلق بالدراسة، كما ذكر هو عن نفسه. تغيرت نظرتي إليه من العداء إلى التقبل، خاصة وأنني كنت قد اكتشفت أن الطلبة الهنود يتعايشون مع بعضهم بحب وسلام، أعني زملائي في الصف، ويتصرفون كأبناء بلد واحد فعلاً، بغض النظر عن خلفياتهم الدينية، وولاياتهم، ومدنهم، بلا كراهية، أو أحقاد مستفحلة متوارثة. هي في الحقيقة، ألعاب سياسية قذرة، يضخمها إعلام أكثر قذارة. حتى إعلامنا العربي نحن يكذب ويضخم أحيانا، لا أتكلم عن ذكره للحوادث، بل عن طريق تصوير كل خلاف بأنه خلاف عقديّ، مع أنه قد يكون خلافاً دنيوياً محضاً، تشعل أوراه ملذات الدنيا، وشهوات السلطة. وأنانية الإنسان ورغبته في أن يحتكر كل الخيرات.

لقد أدركتُ بأن الحكومات هي صاحبة المصلحة الأولى في نشر الكراهية، بين أفراد الشعب الواحد. وهي التي تقتات على

دماء المتحاربين، لتبقى في السلطة، ولتلهي الناس ببعضها. وإلا فالإنسان هو الإنسان. نعم أخوة الدين مقدمة على ما سواها، ولن نعطي الدنية في ديننا، وسنصدح بالحق واضحاً، ولن نسمح بانتقاص ديننا، أو إهانة معتقداتنا أو اغتصاب أراضينا وحقوقنا، لكننا في الوقت نفسه قادرون على التعايش مع بقية خلق الله الذين لم يقاتلونا في الدين ولم يخرجونا من ديارنا، بأخلاق حُلوةٍ، واحترام كبير، وإنسانية متحضرة. فأخوة الدين هي أقوى أسمى الروابط، وبعدها أخوة الوطن، وأخوة القومية، وكلها لا تتعارض مع الأخوة الإنسانية.

لو أن العالم نظر إلى بعضه، على أنه عائلة واحدة، وأن هذه الأرض بيت الجميع، ووطن الجميع، لما رأينا قتالاً، وحروباً، ودماراً، ودماء تسفك بالمجان، في أغلب الأحيان. ولو أن المتطرفين من كل قطر ومذهب، ودين وعرق، أغلقوا أفواههم، ولو أن الكتّاب المرتزقة، كفوّ أقلامهم، ولو أن السياسيين أشغلوا أنفسهم بما هو أجدى وقاموا بالتخطيط لخير البشرية جمعاء، ولو أن كل عائلة علمت أبناءها بأن الناس سواسية أمام الله، لكان هذا العالم.. جنة الله في أرضه.

فما يوحد البشر أكثر مما يفرقهم، وحتى الأديان السماوية، لم يأمر واحد منها، في أصله وجوهره، بكراهية الآخر. فالأفكار

العنصرية، والتصادمية، والاستعلائية، والدموية، هي نتيجة للإبداع الإنساني المحض. الذي حاول -على مر العصور- أن يضفي عليه هالة مقدسة، وينسبه إلى فكر مقدس. خاصة من قبل بعض هؤلاء، الذين تصدوا لتفسير الأديان، وشرحها والتبشير بها، وتجميع الأنصار حولهم.

إنني أعرف بأنه فيما يتعلق بديني الإسلامي -على الأقل- لا يوجد فيه ما يحض على العنف والكراهية. هناك دعوة، وهناك جزية، وهناك جهاد، وهناك فتوحات، وهناك دفاع عن النفس والعرض والدين وصد العدوان الخارجي، لكن لكل هذه الأمور شروطها وواجباتها، وأحكامها، ومواضعها، وليست ارتجالا ولا عبثا، وليست بدافع الحقد، الكره، أو الاستيلاء على خيرات الآخرين.

البشر.. كل البشر.. يحبون.. يتألمون.. يفرحون.. يبكون.. يضحكون.. يلعبون.. يأكلون.. ويشربون.. ويحلمون بغد مشرق. كلهم (ما عدا الشواذ الذين استسلموا للشياطين) يأملون بأن يحققوا أفضل ما يمكنهم في هذه الحياة. وأن يعيشوا بسلام وعدل وحرية. فعلام يقتتلون إذن؟ الأرض تكفينا جميعا، والخيرات كثيرة.. تكفي الجميع، والله خلق كل مخلوق ومعه رزقه، والساحة مفتوحة، ولكل مجتهد نصيب. فلم كل هذا العداء؟ لم كل هذه الحروب وخاصة في هذا القرن الأمريكي البائس؟

من يكسب في النهاية؟! لا أحد.. كل البشر يعرفون ذلك، لكنهم يعاندون ويكابرون!

فلنناد إذن.. بالحب.. بالتعايش.. بالانفتاح على الآخر.. بالتعرف عليه.. دعوته ليتعرف علينا.. لا للذوبان.. لا للضياع.. لا للمساومة على المبادئ.. ولا جدال قطعا في ثوابت الدين.. لكن نعم لتحرر الإنسانية في داخلنا.. ونعم للاعتراف بالإنسان.. أي إنسان. فالله تعالى قال في كتابه قبل أربعة عشر قرنا: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

صدق الله العظيم.

■ (فتيةٌ آمنوا بربهم.. وزدناهم هدى) ■

أقام التجمع الإسلامي في جامعتنا، محاضرة، ألقاها أربعة مسلمين جدد، اعتنقوا الإسلام بعد اقتناع، رغم أنهم مازالوا في بدايات الشباب فبعضهم دون الثامنة عشرة، وأكبرهم، بالكاد في أوائل العشرينيات. كانوا شابين وفتاتين، شاباً إنجليزياً، وآخر أيرلندياً، وفتاة إنجليزية، وأخرى بريطانية من أصل هندي، وهي الوحيدة التي تحولت من الهندوسية إلى الإسلام، بينما الشباب تحولوا من المسيحية، أما الفتاة الأخرى فقد تربت في منزل يتفاخر الوالد فيه بأنه نَشَّأ أولاده على الإلحاد.

قصصهم كانت أكثر من رائعة، وكان الاستماع لهم تجربة جديدة ومفيدة بالنسبة لي. إنها المرة الأولى التي أستمع فيها إلى أناس أسلموا حديثاً، وإلى الصعوبات التي واجهتم، مباشرة. لقد وجهنا لهم أسئلة حول كيفية رؤيتهم للدعوة، وما الدور الذي يمكن أن نؤديه، بوصفنا طلبة مسلمين في الغرب؟ أجابني

الشاب المسلم، بوجه يتلألأ ضياء بنور الإيمان: "بأن تمارسوا الإسلام عملياً.. بحيث تصبحون نماذج حية، ومتحركة لدينكم.. مرآة له". أعجبني كلامه، وأعجبني الحوار بشكل عام، وشعرت بعظمة الإسلام هذا الذي تتسارع معدلات الإقبال عليه في الغرب المسيحي الذي تحارب بعض دوله الإسلام في عقر داره! الله.. ما أجمل الإيمان إذ يغمر القلوب الفتية، فتتألق الأرواح، بالنور الرباني.

شعرت بتعاطف خاص مع الفتاة الإنجليزية التي بلغت اليوم الثامنة عشرة، كانت تبدو مضطربة، وقد كتبت قصتها على ورقة، لأنها خشيت أن تبكي إن هي قرأتها، وقد قرأها أحد الشباب نيابة عنها. أتفهم وضعها، وحيرتها، فهي لم تخبر أهلها بعد بإسلامها، وصامت رمضان من دون علمهم، وكانت تدعو صديقتها لتدخل من النافذة، لكي تتناول طعامها بدلاً منها، حتى لا يشك أهلها -الذين تقضي معهم أيام العطلة الأسبوعية- في أمرها! كانت خائفة من ردة فعل والدها الملحد، الذي تفاخر دوما بإلحاد أطفاله، فإذا بابنته تتحول إلى مسلمة! أما سبب إسلامها؟ فهو شاب مسلم، كان يعمل معها في عمل صيفي على ما يبدو، في أحد المحلات التجارية، وكان يصلي أمامها كل يوم فانشرح صدرها للإسلام.

بعد محاضرة كانت في رمضان، تناولنا إفطاراً جماعياً، وحرصتُ أن أكون بجانبها، أردتُ، وأردنا جميعاً أن نشعرها بأنها واحدة منا، أردتُ أن أحتضنها، قائلة لا بأس عليك أُخيّة، إن الله معكِ.

كان الإفطار جماعياً شعرنا فيه بزوال كافة الحواجز الجغرافية المصطنعة، فكلنا أخوة وكلنا أخوات، وبالطبع كان الشباب منفصلين عن البنات على المائدة، لكننا كنا في المكان نفسه، في جو من الحب الأخوي والاحترام الإسلامي.

أرجو من الله أن يغفر لهؤلاء الشباب المؤمنين زلاتهم، وأن يتقبلهم في رحمته، فهم شباب تحدوا كل شيء: دينهم، وتاريخهم، وأهلهم، ومجتمعهم، وعاداتهم في سبيل دينك المعظم، فكانوا شبابا نشأ في طاعتك.. فأظلنا وأظلهم تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك ولا باق إلا وجهك..

■ سيدتي الجميلة.. My Fair Lady ■

كان الجو شديد البرودة ونحن نقترب من منتصف شهر فبراير ٢٠٠٣م، أكثر برودة من شهر يناير الذي تساقط فيه الثلج بغزارة! وصادف هذا الشتاء عطلة الحج في بلادنا، فأتت أختي لزيارتي مدة أسبوعين، وكنت سعيدة بها، وقررت أن أقوم معها بزيارة بعض الأماكن التي سيكون الذهاب إليها من دون رفقة أمراً مملاً، خاصة إذا كان للمرة الأولى. وهكذا قررت أن أذهب مع (ظلال)، لمشاهدة مسرحية إنجليزية للمرة الأولى، ووقع اختيارنا على مسرحية جميلة جدا، وشهيرة جداً، وهي مأخوذة من رواية للكاتب الإنجليزي الكبير (برنارد شو) بعنوان (بيجمالون). أما المسرحية وكذلك الفيلم السينمائي الذي أنتج قبل ذلك بفترة طويلة فكان اسمه (سيدتي الجميلة) أو My Fair Lady.

وكما ذكرت لنا أختي التي سبق لها دراسة الرواية الإنجليزية، فهي قصة عالم صوتيات وألسن، قرر أن يجري تجربة ليثبت من خلالها أن التعليم يمكن أن يحول أبناء الشوارع إلى نبلاء، من

حيث طريقة الكلام والسلوك، حتى أن أحدا لا يمكن أن يلاحظ الفرق إن لم يعرف حقيقة خلفيتهم العائلية والمجتمعية. وهكذا وقع اختياره على بائعة ورود من الحي اللندني الشهير كوفنت جاردن (Covent Garden)، واسمها ليزا، وبدأ يعلمها، وبالفعل نجح في ذلك، وطبعا تحوي القصة تطورات أخرى مثلاً فهو يقع في حب الفتاة في النهاية، وتعاني هي أيضا من هذا التغيير الذي أصابها.

ذهبنا إلى ميدان بيكاديللي (Piccadilly) ومنه إلى أحد المسارح هناك وكنا نظن أن العرض فيه، لكنه تبين أن المسرحية تعرض فعلاً في (كوفنت جاردن)، لكننا استطعنا شراء التذاكر من هنا. ولأنه كان ثمة وقت حتى بدء المسرحية التي تبدأ في الثانية والنصف بعد الظهر، فقد ذهبنا للغداء ثم إلى صالة عرض الفنون البريطانية (British National Gallery)، وبعدها انطلقنا إلى كوفنت جاردن، وبعد قليل من الضياع في تلك المنطقة، وصلنا إلى المسرح. كنا متأخرين بعض الشيء، لكن بمساعدة أحد العاملين استطعنا الوصول إلى مقاعدنا ولعل الباب أُغلق بعدنا مباشرة.

وحقيقة أعجبتني كثيراً منطقة الكوفنت جاردن، ببساطتها، ومقاهيها الصغيرة التي تشبه مقاهي باريس الشعبية، ورحابة

أماكن المشاة فيها، فقد كانت تمثل وسط المدينة (Down Town) لمدينة أوروبية صغيرة وجميلة، وقد وعدت نفسي أن أزورها من جديد مستقبلاً.

عندما كنت أحضر العرض كنت مندهشة، سعيدة، ومبهورة. فهذه أول مرة أحضر فيها مسرحية أصلاً، ناهيك عن أن تكون مسرحية أجنبية، في إحدى أشهر مدن العالم في حين يتعلق الأمر بالمسرحيات (لندن)، وكونها مسرحية شهيرة أيضا. المسرح بدا خلابا، مسرح كلاسيكي، كل شيء فيه مرتب ومتناسق، الستائر الحمراء، الكراسي المخملية، الشرفات المطلة من علٍ علينا، الإضاءة، الهدوء والنظام.

كانت تجربة جميلة ومثيرة، وبالنسبة لي كان كل شيء أكثر من رائع، من المسرح، إلى المسرحية : ديكورا، أداء، ملابس وغناء! أجل فالمسرحية كانت غنائية، فكان ثلاثة أرباع الحوار غناء، ولكنه غناء رائع، سواء عندما كان كوميدياً أو عاطفياً، لا تستطيع إلا أن تعترف بأن هؤلاء القوم موهوبون ومحترفون. كنت تحس بأنك أمام مسرحية محترفة، لم أكن أتخيل هذه القدرة العجيبة على تغيير الخلفيات والديكور بهذه السرعة، ودون خطأ، وكيف أن هذه الخلفيات تضع المرء في الجو الحقيقي للمكان الذي تتحدث عنه. ففجأة نحن في شوارع

الكوفنت جاردن، مع الفقراء والشحاذين، والعاطلين، والسوقية والبائعين، وكل هؤلاء بملابسهم الرثة، ولهجاتهم الصعبة، ثم نحن في مكتبة الدكتور الذي يعلم الفتاة (ليزا) بائعة الورد كيف تتكلم الإنجليزية الصحيحة. ثم في قصر الملكة، تتوسطه (ثريّا) كبيرة وفخمة، في أجواء احتفال رومانسية، لقد كان شيئاً يفوق الخيال. وقد لفت نظري أن المسرحية (نظيفة) كما نصفها في تعبيراتنا الشعبية، أي أنها خالية تماماً من المشاهد الخارجة، فقد كانت راقية فعلاً، وهذا ما أثار إعجابي. خاصة وأنا قادمة من عالم عربي، نصف دوله ليس فيها مسرح، والنصف الآخر مسرحياته عبارة عن صراخ، وابتذال، وغوغائية، في مسرح محدود الإمكانيات لدرجة أنك ترى العرق يتصبب من الممثلين! أما الديكور فحدث ولا حرج!

انتهت المسرحية بأغنية عاطفية أثرت في نفسي كثيرا، وأثارت الشجن، وقد صفقنا للممثلين بعد انتهائها، لأنني شعرت أنهم أناس مخلصون في عملهم، واستحقوا كل تصفيق وتقدير وإعجاب، ولم يجعلوني أحس بالندم أبدا على ثمن التذكرة الذي دفعته، والذي أعطاني موقعا جيدا للمشاهدة وهو ٢٥ جنيهاً إسترلينياً أي ما يعادل سعر صرف العملة يومها حوالي ١٥٠ ريالاً للفرد، لكنها -وبكل صراحة- كانت تستحق كل بنس دفعته،

فهكذا يكون الفن وهكذا يكون الأدب، والآن عرفت لماذا يعتبر الكثيرون بأن المسرح (لا السينما) هو الفن الراقي الحقيقي، وأن من يبدع على المسرح ممثل حقيقي، فهنا لا توجد أي إعادة، أو توقف أو دبلجة، وأي غلطة قد تكلفهم غالياً.

■ فيلم من بطولتي ■

(الحق بالقطار إن استطعت!)

(Catch the train if you can!)

بالرغم من أن دُور السينما هذا العام كانت تبث فيلما بعنوان (Catch me if you can!)، فلم أكن أدري بأنني سأقتبس اسم هذا الفيلم، لمغامرة قمت بها أنا وأختي بلا سابق إنذار. فقد انطلقنا في زيارة لمدينة (نوتينجهام) لأننا أردنا زيارة الجامعة التي تفكر كل منا في ارتيادها لدراسة الدكتوراة. ومع أننا خرجنا من بيتي في هاتفيلد مبكرين، إلا أننا لم نصل تلك المدينة إلا بعد جهد وعناء، في حوالي الثانية بعد الظهر. وكانت رحلة مرهقة للغاية فقد اضطررنا لركوب عدد كبير من القطارات المتجهة شمالا، مع أننا ما اخترنا الذهاب شمالا عبر مدينة (STEVENAGE)، بدلا من النزول إلى لندن وأخذ خط مباشر، إلا رغبة في اختصار الوقت! لكن خطأ بسيطا ارتكبناه بركوب قطار خاطئ، تسبب لنا في الكثير من المشكلات

والارتباك، وجعلنا نقضي اليوم كله في السفر والمتاعب. لم نكن نشعر بالخوف كثيرا لأننا كنا معاً، ولأنه -على رأي إحدى صديقاتنا السعوديات- "في هذه البلاد هناك دائما خط رجعة".

لم يكن هذا الخطأ محصلة لغلطتنا نحن فقط، فقد كان لشراسة وعنجهية إحدى الموظفات، في واحدة من المحطات محطة (Welyen Garden City) دور كبير في ضياعنا أيضاً! فقد سألناها إن كان هذا هو القطار الصحيح فأشارت بأنها لن تجيب حتى يتحرك القطار! وعندما تحرك وسألناها، قالت ذلك قطاركم لماذا لم تركبوه؟! وحقيقة وددنا ساعتها لو ندفعها على السكة الحديد، لعل قطاراً ما يدهسها، ويشفي غيظنا! ألم تكن هي من رفضت الإجابة علينا؟! المهم أنه بعد جهد وعناء، وصلنا وقد تعلمنا درساً ليس أقصر الطرق، بالضرورة أسرعها، وآمنها، وفعلا أسرع الطرق هو الخط المستقيم!

■ حين ترعى الجامعة الإبداع وتنميه ■

حضرت اليوم العرض المسرحي الأخير، لمسرحية تشارك فيها زميلاتي في السكن، وصديقة عربية. وكانت بعنوان (باقزي مالون) Bugsi Malon بقاعة (Prince Edward Hall) في الجامعة. والحقيقة أنني كنت أتوقع مسرحية جيدة وجميلة ولكن ليس إلى هذا الحد! نعم فالمسرحية كانت أقرب إلى عمل المحترفين، منها إلى إنجازات طلبة هواة في الجامعة، خاصة فيما يتعلق بالديكور والإخراج والأضواء، والسرعة والإتقان في تغيير المشاهد.

يمكنني أن أجزم بأن هذه المسرحية على هذا المسرح الجامعي، أفضل من بعض مسارحنا العربية المحترفة، والأمر لا علاقة له بموضوع المسرحية، فالمسرحية كفكرة وموضوع لم تعجبني كثيراً.

لقد سجلت إعجابي سابقاً بمسرحية (سيدتي الجميلة)، وبالمسرح البريطاني المحترف عموماً، واليوم أستطيع أن أعرف

كيف وصل ذلك المسرح إلى ذلك المستوى. فإذا كان هذا هو مستوى طلبة هواة، لا علاقة حتى لدراستهم بالمسرح، في جامعة متوسطة، وهذا هو ما يقدمونه، وهكذا تساعدهم الجامعة ماديا ومعنويا وتشجعهم، فلا عجب إذن أن يتطور المسرح البريطاني المتخصص. فحتى على مستوى الهواة، لا مكان للأعمال الهابطة، والعمل غير المتقن.

تذكرت حالنا في جامعاتنا، وكيف أن الإبداع كلمة محذوفة من قاموس المسؤولين! وأتحدث هنا عن قسم الطالبات في جامعتي السابقة على الأقل، فلا مسرح ولا مسرحيات، ولا نوادي خاصة بالهوايات، ولا دورات فنية وأدبية، ولا قاعات رياضية حقيقية وملاعب شاسعة، ولا دورات مجانية لتطوير الشخصية، ناهيك عن عدم وجود اتحادات طلابية ولا انتخابات ولا أي شيء. ثم يسمون تلك الأماكن في العالم العربي جامعات!.

بالرغم من أنني ناقمة على حكومة (بلير) التي شنت الحرب على العراق، فإنني لا أستطيع إلا أن أبدي إعجابي عموما، بمستوى الاهتمام بالأدب والثقافة والفنون في هذا البلد، وعلى رعاية الدولة والقطاع الخاص لهذه النشاطات. وهنا يجد الشباب متنفسا لمواهبهم، أما عندنا فلا شيء! وبعدها يلومون

الشباب على تفسخهم أو تطرفهم، ويلومون الفتيات على سفورهن وسطحيتهن! ولكن أين البديل عن التسكع؟ سؤال سيظل بلا إجابة لوقت طويل.

■ الحرب العدوانية بدأت.. ■
والصواريخ تُلهب سماء الزوراء!

"يوم حزين.. يوم كئيب.. استيقظت اليوم على أخبار مرعبة من المذياع عن بدء الحرب على العراق.. لم أتوقع حقيقة أن تكون بدايتها بهذه السرعة قبل انتهاء المدة المحددة بقليل، أو بعد انتهائها بقليل! قنابل.. صواريخ.. انفجارات.. شيء مؤلم حقاً.. عار على العالم.. عار على العرب.. ولا حول ولا قوة إلا بالله".

كانت هذه هي الكلمات التي سجلت في صبيحة يوم الخميس ٢٠-٣-٢٠٠٣ م.. في دفتر مذكراتي.. وأنا أمسح دموعي.. كنت حزينة.. ووحيدة.. في بلد تشن حكومته حاليا الحرب على أهلي وشعبي وأخوتي في العراق.

لكن حقيقة ما خفف ألم مصابي وعزّاني.. هو ما حصل بعد ذلك من غضب ومظاهرات عمت بريطانيا من أقصاها إلى أقصاها وبلغت ذروتها في لندن.. حتى تلامذة مدارس اسكتلندا تركوا مدارسهم وخرجوا ليقولوا (لا للحرب). في يوم السبت الذي تلا

العدوان سمعت عن مظاهرة كبيرة في لندن.. وتحرك الحس الصحفي في داخلي بأن أذهب إلى لندن فهذه لحظات تاريخية من عمر الزمن ولدي فرصة أن أكون في هذا المكان شاهدة على ردات فعل الناس في هذا البلد الذي يشارك في الحرب وفي هذه العاصمة الدولية، وبذلك أستطيع أن أنقل هذه الصورة الحقيقية للناس في عالمنا. ولكنني شعرت ببعض القلق والخوف لأن الوضع مختلف هذه المرة.. فهذه البلاد في حالة حرب الآن.. وهناك جنود لها يقتلون في العراق.. وأنا مسلمة وعربية وقد أتعرض للأذى. ثم تذكرت بأنني في مكان تنظم شرطته المظاهرات وتحميها، وتسير فيها جنبا إلى جنب مع شعب راقٍ متحضر يعرف ماذا تعني المعارضة السلمية، واحترام القانون، فذهبت.

كان يوما جميلا.. لم أندم على الذهاب أبداً.. خاصة وأنني استخرت الله قبل الذهاب.. يومها عرفت قيمة ومعنى الديمقراطية والحرية، على الرغم من كل مساوئ الديمقراطية الغربية، والحكومة البريطانية.

استمعت إلى عدة خطباء في الهايدبارك أبرزهم (عمدة لندن، عزام التميمي، شاب كردي، دكتورة عراقية بريطانية، سيدة بريطانية). خطب رائعة تضج بالحماسة والإنسانية والدفاع عن المبادئ، شعرت يومها بأن لي قيمة، بأنني أنتمي

لحزب ما، لحركة ما، لمجموعة ما، وأننا جميعا بلا تمييز، ديني، عرقي، طائفي، لوني، ثقافي، جنسي.. كلنا معاً ضد العدوان.. ضد الخراب.. ضد الحروب وتجارها. ضد قوى الشر والظلام والعولمة والنظام العالمي الجديد.. معاً من أجل خير الإنسانية وحق الشعوب في الحياة بعدالة وكرامة.. معا من أجل العراق العريق.. العربي الإسلامي الحضاري.. الذي دمرته الحروب وأنهكه الحصار.

فهذا اليوم شعرت بالسعادة لأنني ولدتُ في بريطانيا، ولأنني اليوم في بريطانيا التي تشارك في الحرب، ويُقتل جنودها، ومع ذلك استطاع الناس الخروج والتعبير عن آرائهم ولم يمنعهم أحد. ولأن الشعب البريطاني.. أطفالا وشيوخا.. كان شجاعاً في رفضه للعدوان وفي تعبيره عن رفضه، بينما في العالم العربي، كانت المظاهرات كما سمعت (إن وجدت) ميتة.. هزيلة.. وقليلة!

كم أردت أن أكتب هذه الكلمات على صفحة الجريدة، وأقذف بها في وجه من لا يفرقون بين الشعوب الغربية والحكومات الغربية، ولا يفتؤون يحذروننا من الغرب وشروره.. دون أن يحاولوا اقتباس إيجابياته ونبذ سلبياته.. حسناً لتعلموا اليوم بأنه في الوقت الذي صمت فيه كتّاب وأدباء وفقهاء وعلماء وسياسيون عرب فإن أوربا تكلمت.. وقالت لا!

في طريق العودة واجهت بعض المصاعب، فأولاً حصل اشتباك بسيط بين الشرطة وبعض المتظاهرين، في شارع أكسفورد، ودفعني أحد رجال الشرطة برفق طالبا مني سلوك طريق آخر. بصراحة لم أخف منهم، أي الشرطة فلم يبد عليهم أنهم متحفزون لضرب أحد أو للإساءة إليه بأي حال.

عندما ركبت المترو، أو قطار الأنفاق (الاندرقراوند)، حصل خلل أدى إلى توقف القطار، لبعض الوقت، بدا الجو مكهربا، والناس خائفون لأننا في ظرف حرب وكل شيء وارد. كنت المحجبة الوحيدة في هذه المقصورة، أحسستُ بنظرات الناس تخترقني بصمت، ثم تكلمت طفلة صغيرة أفريقية خائفة، قائلة: (هل سنموت؟) بصراحة لم يكن ينقصنا في هذا الصمت الرهيب، وهذا القلق البادي إلا سؤال هذه الصغيرة المرعب! ابتسمت لها وكسرت حاجز الصمت قائلة لها ولأخواتها المراهقات، بأن كل شيء سوف يكون على ما يرام! لقد كانت تجربة مخيفة قليلاً، لكن مرت بسلام.

■ بشائر النصر تلوح في سماء الهزيمة العربية.. ■

مضى أقل من أسبوع على بداية الحرب.. والصورة اليوم كما يلي.. صمود عراقي مشرّف.. هزيمة أمريكية مادية ومعنوية.. أسرى وقتلى وفضائح بالجملة!

أخبار تثلج صدور المؤمنين.. وأحرار العالم توالى تأييدهم لنا اليوم، وعرضت قناة (الجزيرة) و(التلفزيون العراقي) صوراً لأسرى أمريكيين، عددهم أربعة جنود، ومجندة واحدة. كذلك عرضت صوراً للقتلى من الجنود. اليوم تبدى الكذب الأمريكي، فلا (البصرة) ولا (أم قصر) سقطتا كما روج إعلامهم المضلل، ولم يستقبلهم الناس بالورود بل بمقاومة عربية بطولية، تعيد الأمل لنا، وتخزي الانهزاميين العرب!

الجيش العراقي يستبسل اليوم، لأن العراق مظلوم، والمعركة اليوم معركة العراق.. معركة الوطن.. بعكس حرب العام ٩١م. نفخر اليوم بكم أبناء الرافدين.. والله أكبر منهم يا بغداد.. فاصمدي عاصمة الرشيد.

اليوم أيضاً حصل شيء مضحك مُبْكٍ، فقد أطلق الأمريكان النار على الإنجليز (رفقائهم) خطأ وقتلوهم، وقد تكرر هذا عدة مرات حتى بلغ عدد القتلى بالنيران (الصديقة)! ستة عشر جنديا معظمهم بريطانيون، وتحياتي لدقة التصويب، والأسلحة الذكية! فعلاً ذكية عرفت كيف تهاجم المعتدين الحقيقيين. وهناك أنباء عن قيام جندي أمريكي مسلم بتفجير قنبلة في معسكره في الكويت، أدى لمقتل شخص واحد، وجرح اثني عشر، والتحقيق جار معه.

المهم أن الأخبار كانت جيدة اليوم، وأستطيع أن أنام الآن، لكن ليس براحة وهدوء، فأنى لي ذلك، والعدوان مستمر، وإنما على الأقل أنام، وأنا أملك القدرة على أن أحلم أحلاماً سعيدة، لأن لها ما يقابلها على أرض الواقع، حقيقة لا مجازاً.. اللهم انصر المظلومين والمستضعفين، وأقر أعيننا بالنصر المبين.

■ وسقطت عاصمة الرشيد.. ■

لم يكن يوما كغيره من الأيام وإن بدا كذلك في بدايته.. فقد خرجت من البيت إلى مركز التسوق الوحيد في مدينتنا والمسمى الغاليرية، لأتسلّم صوراً كنت قد تركتها هناك ليتم تحميضها. ولأن مكان التحميض هو محل لبيع الأجهزة المختلفة بما فيها الكاميرات وشاشات التلفزة الكبيرة.. فكان أن وجدت الناس متجمهرين للتفرج على شيء مثير.. اقتربت لأرى ماذا يجري فاكتشفتُ الحقيقة المرة.. لقد سقطت بغداد إذن.. سقط مغنى الرشيد! فقد كان ذلك مشهد إسقاط التمثال في ساحة الفردوس.. وسط هوس مجموعة عراقية صغيرة.. وفرح أمريكي عارم!

تجمدت الدموع في عينيّ.. وأنا أكاد لا أصدق.. كيف حصل ذلك ولماذا؟ ثم ماذا حل بالأخبار المفرحة التي كنا نسمعها حتى نهار أمس؟ أين التصريحات المتفائلة لوزير الإعلام وللرئيس العراقي؟ أين مقولة أن الجنود سينتحرون على أسوار بغداد؟

لا أجوبة! لا شيء سوى حقيقة واحدة على الأرض لقد سقطت عاصمة الرشيد.. وكنتُ أنا اليوم في بدايات شبابي شاهدةً على هذا السقوط.. كما كنت سابقا شاهدة على كارثة حرب الخليج وأنا بعدُ في الحادية عشرة..

تسلمت صوري.. ومشيت دون أن أنظر من جديد.. سمعتُ بعض الناس يتهامسون.. يعلقون.. لم أعرف أكانوا سعداء أو حزانى أم مصعوقين؟ كنت أعرف شيئاً واحداً.. أنني العربية الوحيدة التي كانت هنا.. وأن قلبي مثقل بالحزن.. وكانت عيناي ممتلئتين بالدموع التي تأبى النزول.. كنت وحدي أحس بفداحة الكارثة على مستقبلي الشخصي وعلى أمتي.. من المؤكد أنني لم أكن أبكي سقوط نظام طاغية.. ولا حكماً عربياً شمولياً ديكتاتورياً.. لكنني كنت أبكي تاريخاً.. بلداً.. شعباً.. وأمة.. أنتمي إليها وتنتمي إلي مهما بعدت الشقة.

مضت عدة أيام.. والوضع يزداد غموضا.. ونحن نزداد حيرة.. ولا أملك إلا أن ألجأ إلى حصن الكلمات.. القلم وحده (بعد الدعاء) قادرٌ على أن يغمرنا بالرضا والمواساة..

نعم هكذا.. سقطت.. بلا مقدمات!

خالفت.. كل التوقعات!

سقطت.. رغم ما كان في البصرة وأم قصرٍ.. من بطولات!

بغدادُ.. جعلتنا اليومَ.. نسكب العبرات..

غير مصدقين.. ما تناقلته الوكالات..

قلنا خِطةٌ.. كذبة.. مؤامرة..

(شيء ما لا بد سيحصل!)

كمين للغزاةِ..

لكن هيهات.. هيهات..

الجيشُ العراقيُ تبخّر..

والحرسُ الجمهوريُ تبعثر..

وبقينا نرقبُ.. ننزفُ.. ندمعُ..

نعزي بعضنا: يا أخي تَصبّر!

ننظرُ في المرأةِ برعبٍ..

ونقول:

هذا يومٌ حتما سَيُذّكر

حتما سَيُذّكر!

(أبريل ٢٠٠٤)

ظللتُ أسأل نفسي.. أين الرئيس العراقي الشجاع؟ لا أثر له! لا شعرة تقود إلى مصيره، لا أثر لأبنائه.. لعشيرته.. لحزبه.. لحكومته.. لموظفيه وحراسه! أين تبخروا؟ كيف طاروا؟.. اختفوا في يوم وليلة.. هل انسحبوا؟.. انهزموا؟.. قُتلوا؟!.. أُسروا؟!

كل ما أعرفه أن هناك شائعات تروج.. لصفقة.. لخيانة.. لعملية بيع كتلك التي حصلت لفلسطين! ولو صح هذا.. لو صح أن (أبا عدي) استسلم بعد أن رفض ذلك منذ البداية.. وتسبب نتيجة لذلك في مقتل الآلاف وجرحهم.. فإنه سيكون أنذل رئيس عربي في التاريخ! بعد أن كان واحداً من أشرسهم وأكثرهم دموية. وكأنه يأبى إلا أن يورثنا الكوارث كالعادة! لكن لننتظر ونحاول تبين ما جرى.

الوضع في العراق مأساوي الآن.. فوضى عارمة.. سرقات.. نهب.. اعتداءات على الأرواح والممتلكات والأعراض.. ومرافق الدولة.. وحتى التاريخ! لقد حرقوا المكتبات.. وسرقوا المتاحف! تبدو بغداد كغابة مليئة بالوحوش الجائعة.. الجريحة والباحثة عن الطعام.. أو الانتقام!

الحمد لله أنني لا أملك تلفازًا هنا ولست مجبرة على مشاهدة هذه المشاهد الرهيبة. فالأخبار من المذياع.. التي تنقل

فرحة الساسة الإنجليز والأمريكان.. وبعض جهال ومرتزقة وخونة العراق من المعارضين وبعض لاجئة أوروبا وأمريكا غير الشرفاء.. كانت كافية.. وتكاد تصيبني بالغثيان.

يالله.. ها نحن نخسر مرة أخرى.. أمام الغرب.. تماما كما حصل في المئة عام الماضية.. ومرة أخرى يركع الجندي العربي المسلم.. أمام غطرسة الكاوبوي.

العالم العربي يبدو أنه أصيب بالذهول.. ومصدوم إلى حد كبير.. غصة تملأ الشعب العربي بلا حدود.. تماثل أو تفوق صدمة ١٩٦٧م.. نعم الآن فهمت مشاعر والدي عندما كان يحدثني عن تلك الحرب.

أعلم.. ويعلم عقلاء العرب.. ووطنيو العراق.. بأن العراق مجرد تجربة.. تجربة تسويق الديمقراطية على الطريقة الأمريكية.. مزودة ببهارات الخنوع والذل والعمالة وبيع مصالح الوطن والأمة.. وهذه التجربة لو قومناها من الناحية الحربية (ولم تتضح صورة ما بعد الحرب حتى الآن) فسنرى أنها كانت ناجحة لكاوبوي تكساس.. رغم أنه في فترة ما من فترات الحرب كاد يموت رعباً وعاراً. ولذلك سيبدأ أشرار واشنطن بشحذ أسلحتهم استعداد للحرب القادمة.. أتكون سوريا.. أم إيران؟

اليوم يلوح المستقبل مظلما أمامي.. وفقا للدلائل والمعطيات.. لكن الأمل في الله كبير بأن ينقلب السحر على الساحر.. وتغدو بغداد بوابة للنصر.. والصحوة الإسلامية والعربية.. فبربك بغداد لا تخيبي ظني مرة أخرى.. فقد وثقت بكِ مرة فخنتِ الثقة.. فلا تفعلي هذا ثانية..

■ على ضِفاف بحيرة الهايدبارك ■

كنتُ قد انتهيت للتو من بعض الإجراءات المتعلقة بدراستي في بريطانيا، والتي استلزمت حضوري إلى لندن. كان الوقت لا يزال مبكرا، والشمس تغمر لندن في هذا اليوم الصيفي الجميل من شهر يونيو، فذهبت لحديقة الهايدبارك، الأثيرة على قلبي.

اشتريت (ساندويتشاً وعصيراً)، وجلست أستمتع بطعامي على كرسي خشبي مقابل البحيرة. وكان هناك على الطرف الآخر من الكرسي الطويل، رجل عجوز، لم أكترث له في البداية، ثم إذا به يبدأ معي حديثا بالعربية سألني، إن كنت مسلمة، فأجبته بنعم (وأنا مغتاظة من سؤاله هذا لفتاة محجبة!)، فإذا هو يسألني من أين أنا؟ بصراحة لو كان هذا رجلا عربياً شاباً أو حتى كهلاً، لكنت استغربت وقاحته، ولتركتُ المكان! لكنني خمنت بأنه رجل تجاوز السبعين، ويحمل كيسا مليئا بالأدوية، وتبدو آثار الغربة المرة عليه، وكان راغبا في التحدث مع شخص

عربي، ولذلك تحدث معي. ومن أجل ذلك تجاوبت معه، خاصة بعد أن عرفت من لهجته أنه عراقي، والعراق الحبيب قد سقط للتو. إضافة إلا أنني كنت دوما ضعيفة أمام الرجال العجائز، إذ أرى فيهم صورة لجديّ اللذين لم أعرفهما أبدًا، ولم أعش تلك المشاعر الجميلة معهما. رداً على سؤاله أجبته بأنني من أكبر دولة خليجية، فقال الإمارات، فابتسمت قائلة إنه أخطأ، وبدا متردداً في التخمين، فأرحته قائلة: من السعودية، فقال لي: (والنعِم)! السعودية أكبرهم مساحة.. وناسها أكبرهم نفوسا" أخجلني هذا الإطراء غير المتوقع فشكرته.

أخبرني بعدها أنه من العراق، وأخذ يتحدث طويلا.. عن الألم العراقي، وعن الفرحة بالخلاص من النظام! كان كلامه صعبا عليّ.. فأنا السعودية التي لم تر العراق يوماً.. أعتبرُ سقوط بغداد متمثلا بسقوط نظامها واحداً من أسوأ الأحداث التي مررتُ بها في حياتي، وهذا العراقي يقول العكس!

ذكر لي بأنه محامٍ متقاعد من الموصل، وواصل الحديث عن سعادته بسقوط نظام صدام، تمالكتُ أعصابي، وتركته يتحدث، فقد شعرت بأنه في حاجة لذلك فعلاً. كنتُ أشفق عليه وهو يتحدث عن فرحته البائسة بأسطورة التحرير، وتصديقه لوعود الدجال (بوش) الذي قال (حسب كلام محدثي) بأنه سيجعل من

العـــراق: "يابان الشـــرق الأوسط"، وجنتـــه الموعـــودة، وواحـــة الديمقراطية والحرية، في تلك البقعة المظلمة من العالم.

بدت أفكاره ساذجة، وكلامه لا يصدّق، وكان من هؤلاء الناس الذين تنطلي عليـــهم هكذا كـذبات وهم في أوروبا! لكن حين استمعت لمعاناته، وعرفت حجم هذه المعاناة أيام ذلك النظام، فـيكمن عندها، تفـهم وتقـبل كل مـا قـاله، فـبـعض الحكومـات العربية تحول الناس من وطنيين إلى عملاء، وتدفع المرء للتحالف مع إبليس ذاته ضـدها. ليس مـعنى هذا أنني أبرر هـذه المواقف، أو أنني يمكن أن أسلك سلوكـهم ذات يوم، لكنني أســتطيع أن أتفـهم أن لكل شيء أسـبـاباً، فـالناس لا تولد خـائنة، ولا تخُلق عميلة.

هذا الرجل مـحـامٍ، درس الحقوق في الخـمسـينيـات من القـرن الفـائت، في وقت كـان المحـامـون العـرب يعـدون على الأصابع. وهو من عائلة كريمة، ذات عز وجاه، وانتهى بهم الحال إلى أن يأكلوا طعاماً، يفـترض أنه للحـيوانات، ولكنه وزع عليهم إبان نظام الحصار في عهد صدام حسين كما روى لي. ثم كما كـانت المرارة التي تحـدث بهـا وهو يصف لي مـدى ألمه لتبـخـر أحلامه، ومضي سنوات عمره، في عهد ذلك النظام.

كان يحلم أن يبني بيـوتا لأولاده حوله في الموصل، وأن يراهم متـزوجين، ويستـمتع برؤية أطفـالهم يكبـرون، ويعيش الجمـيع في

سعادة حتى يأتي أمر الله. لكن نتيجة للحروب المتتالية، والحاجة إلى عسكرة المجتمع، فقد سُرقت أعمار أبنائه، واُغتصب منهم شبابهم. فوصلوا إلى الأربعين، دون أن يتزوجوا، أو يمتلكوا بيوتا أو يحققوا شيئاً ذا قيمة، حتى قرروا الهجرة. وهاهم جميعا مغتربون خارج الوطن، حيث لا أحلام ولا آمال سوى أن يعيش المرء يومه، في مكان يعرفون أنه ليس مكانهم. قال لي بلهجته العراقية الجميلة: "خلّص العمر ولم نعمل شيئا، لا لي ولا لأولادي، أريد الذهاب للحج، ولكن هأنذا هنا منذ ثلاث سنوات، لا أعرف شيئا عن أملاكي القليلة في الموصل، من وكلتهم من أهلي وغيرهم أكلوني، وانظري كيس الأدوية هذا كم هو ممتلئ.. وأنا لست مرتاحا هنا في هذا البلد".

نعم ما أصعب الألم والحزن والإحباط الذي يشعر به المرء، حين يشعر أن رحلته في الحياة قد انتهت أو شارفت على النهاية، دون أن ينجز أحلامه العزيزة، ولا حتى أيسر جزء منها.

لكنّ محدثي حانق على العرب، ووصفهم بأقذع الصفات، وردد شعار (العراق للعراقيين)، ولكنه أبدى تعاطفا ومودة للسعودية والكويت (ولا أعرف هل هذه مسبة أو مفخرة!) لموقفهما من النظام السابق، أو ربما لعله كان يجاملني فحسب. كان حانقاً على كل من كان ضد الحرب، وعلى

الأردن وسوريا خصوصاً، وعلى السيد عمرو موسى كذلك. ترى كيف سيكون موقفه مني لو عرف أنني كنت ضد الحرب كلياً ومؤيدة للمتظاهرين؟

أحسستُ اليوم بأنني ربما أخطأت التقدير. ربما لم يكن سقوط العراق أمرا سيئا في النهاية ما دام قد أدى لسقوط نظام سيئ. ربما كان هذا من مصلحة الشعب العرقي فعلاً، ولو أنه يصعب على عقلي تقبل فكرة أن نوايا أمريكا حسنة، وأنها ستقدم على شيء فيه خير كل الخير لنا!

على كل، إنها جناية حكام العرب، الذين أوصلوا شعوبهم التي عرفت تاريخيا بوطنيتها، وتدينها، وحبها للشهادة، واستماتتها في الدفاع عن الأرض والعرض، إلى أن تفرش الورود في طريق الغزاة، وأن تشد على يد المحتلين! ضد وطن يقطع آذانهم وأذرعتهم، وألسنتهم، ويغتصب نساءهم (وقد حكى الرجل قصصا مروعة).. وأطعمهم طعام الخراف!

لقد أثر فيّ كلام هذا الشيخ كثيراً، لكن لا أجزم بأنه استطاع أن يغير موقفي مما حدث، فقط أدخلني مرحلة الشك.

(لكن لن يمر وقت طويل قبل أن أكتشف، أن رأيي الأول هو الصواب، عندما بدأت الحقائق تظهر في العراق، وحين ظهر الوجه الحقيقي للمحتل في الفلوجة والنجف وأبو غريب. ترى

هل غير محدثي هذا موقفه اليوم بعد مرور أكثر من ثلاثة أعوام على سقوط بغداد؟ ليتني أراه من جديد!).

ثم كان للقائي مع دكتور عراقي في جامعتي بعد ذلك بأسابيع أثرٌ مختلف تماماً عن حواري مع الشيخ، فهذا الأستاذ المتميز هو أبعد ما يكون عن الطائفية أو العنصرية، فهو ضد الاحتلال، ويقول إن كل العراقيين الشرفاء ضده وهم غالبية الشعب العراقي. وأخبرني أن العراقيين الذين يباركون الاحتلال عن حقد وتآمر ليسوا كل العراقيين، وإنما جزء بسيط من غير العراقيين في الأصل، الذين هم مرفوضون في العراق، ومنبوذون في إيران، ولا يناسبهم إلا أن يعيشوا في أوضاعٍ كهذه الأوضاع، حيث الفوضى والفساد والمحسوبية، وتوسيد الأمر لغير أهله.

في ذلك الوقت شعرت بأن نافذة أمل جديدة انفتحت أمامي بعد ظلمة، فمازال ثمة عراقيون عقلاء، وطنيون وشرفاء، وكنت في الفترة الأخيرة لم أرَ سوى المرتزقة على وسائل الإعلام من مختلف الملل والأعراق، وهم يهللون ويكبرون لضياع بلدهم ويعتبرون سقوط عاصمة الرشيد عيداً وطنياً ولكن الله أخزاهم، وسيُهزم الجمع ويولون الدبر بإذن الله.

■ ولهذا قالوا: الضربة التي لا تقتلك.. تقويك! ■

كان يوما صعباً ولاشك، وكانت تجربة قاسية في الوقت نفسه وإن خرجت منها بدروس جيدة أضافت لحياتي خبرة وحكمة ككل تجاربنا في الحياة، فما هي إلا دروس تتكرر حتى نتقن الدرس ونعي فائدته، ونفهم حكمته.

في هذا اليوم الصيفي، ودعت أختي المنطلقة إلى الشمال الإنجليزي، عند محطة (ايوستن) الشهيرة، ثم اكتشفت أن الوقت مازال مبكرا للذهاب إلى هاتفيلد، فقررت أن أقضي بعض الوقت في شارع أكسفورد، وليتني لم أفعل! كنت أعرف أن لندن ليست مدينة آمنة، ولكنني كنت قد اعتدت عليها، وأقنعت نفسي بأنها آمنة نهارا على الأقل ولا أحتاج في أثنائه إلى رفقة، حتى أتجول فيها بحرية كما هو الحال في المساء.

لم أكن أنوي الشراء، فقط أردت أن أتمشى، وبعد أن فعلت ذلك، وهممت بالعودة، دخلت إلى أحد المحلات الشهيرة، وعندما خرجت منه رأيت -مصادفة- محلاً لبيع الآيس كريم فاشتهت

نفسي واحداً، وعندها اكتشفت أن محفظتي ليست معي! عدت لآخر مكان أذكر أنني رأيتها فيه، وهو ذلك المحل الشهير، ودخلت إلى غرفة تغيير الملابس، فلم أجد شيئاً، وهنا أخذ رأسي يدور، وبدأت الدموع تتساقط بعد أن حاول من في المحل مساعدتي دون جدوى.

لقد أحسستُ بأنني تائهة تماما، ففي هذه المحفظة أو الحقيبة الصغيرة كان يوجد كل شيء: هاتفي الجوال، الجهاز كان هدية خالتي بمناسبة تخرجي من الجامعة، كان أزرق اللون، من شركة سامسونج وكنت أعتز به كثيراً، وبداخله الشريحة التي تحوي أرقام كل من أعرف في هذا البلد. وهناك مفتاح شقتي وغرفتي، وكذلك نقودي، وبطاقة هويتي، وبطاقة البنك، باختصار كنت قد فقدت كل ما يجعلني قادرة على الحياة في هذا المكان!

لطف الله وعنايته الكبيرة، حمت بطاقة القطار، بأن كانت في جيبي، ولولا ذلك، لاضطررت للتسول للحصول على ثمن تذكرتي، أتلفت حولي لأرى من من الناس يمكن أن يساعدني هنا، وشاهدت رب عائلة كويتي، وفكرت بأنه لو لم أجد تذكرتي لطلبت مساعدته، أو كنت سأستأذنه في استخدام هاتفه الجوال، فالعرب كرماء أينما حلوا، ولكنني لم أفعل أيا من هذه الأمور بسبب الخجل.

أخذت بطاقتي وذهبت إلى محطة القطار، وعدت لهاتفيلد، وأنا أحصي بقية المصائب التي عليّ مواجهتها. اليوم هو الأحد، وبالطبع كل البنوك مغلقة، ولا أمل في الاتصال بهم لإلغاء بطاقتي أو لسحب نقود من حسابي. وعندما وصلت إلى هاتفيلد، كان عليّ أن أمشي من محطة القطار حتى الجامعة، لأنه لم يكن معي نقود للحافلة أو للتاكسي. مشيتُ ومشيتُ وحمدت الله على أننا في الصيف وأن الشمس لا تزال تغمر المكان. وبينما أنا أمشي قررت أن أذهب للراحة عند صديقتي السعودية أو تلك الكويتية، وكلتاهما امرأتان ناضجتان، تسكنان خارج الجامعة. لأنني كنت مرهقة، جائعة، حزينة، وحائرة، وتوقعت بأنهن سيهتممن بأمري ويخففن عليّ، ولذلك أخذت طريقا أقرب لبيتيهما، وأبعد عن بيتي، وأخذت أمشي رغم أن قدميّ كانتا تئنان من الألم. ثم كانت المفاجأة! كلتاهما خارج المنزل، وتوقعت بأنهما قد خرجتا معا لمكان ما، وهكذا كان عليّ أن أعود من ذلك الطريق مرة أخرى وأن أذهب إلى بيتي. كنت شديدة العطش، لكن ما العمل؟ على أنه يجب عليّ أن أسرع أيضا فاليوم الأحد، والشوارع خالية، والأمر لا يبدو مريحاً.

كان من الطبيعي أن أذهب إلى مركز الأمن في الجامعة، ليفتحوا لي الباب وقد كان، وبعد صعوبة أيضا، لأنه كان عليّ أن

أبحث عن بيت إحدى الطالبات التي تملك المفاتيح. وصلتُ إلى البيت.. ارتميتُ على السرير.. ونمت على الفور.. ثم استيقظتُ وصليتُ ونمت من جديد، وأنا أحمد الله على أنني وصلت سالمة، وعلى أنني في النهاية نجحت في تدبر أمري، رغم الصعوبات.

في اليوم التالي علمتُ بأنه يجب عليّ أن أقدم بلاغا في الشرطة، وآخذ منهم خطابا يساعدني على استعادة المفقودات. وأنه يجب أن ألغي بطاقة البنك وقد فعلت، وكذلك أخذت موعدا لعمل بطاقة جامعية جديدة. لم أكن قد اتصلت بالشرطة بعد، لكنني كنت قد تدبرت معظم أموري، وأقلمت نفسي مع الوضع الجديد، وبدأت أتقدم بطلبات استخراج بدائل. وفجأة قررت مرة أخرى الاتصال بالمحل الذي ظننت أنني فقدت فيه أشيائي، وكنت (وهذا من حسن حظي) قد أخذت رقم هاتفهم، فاتصلت بهم، ويا للمفاجأة! لقد وجدوا المحفظة، ولكن بدون النقود الورقية (وكانت في حدود ال٢٥ جنيها) ولم أكن معنية بها كثيراً، لكنهم لم يجدوا أيضاً هاتفي الجوال.

ذهبت إلى لندن فورا، وكنت سعيدة لأنني استعدت كل هذه الأشياء على الرغم من حزني على ما فقدت، لكن كان عليّ الآن أن أدخل في عملية أخرى مرهقة، وهي إلغاء استصدار البدائل، وكانت عملية مزعجة أكثر من عملية طلب إعادة الإصدار!

خاصة فيما يتعلق بالبنك، فقد تم إلغاء بطاقتي وقت إبلاغي لهم بضياعها، وأصبح عليّ الانتظار لبعض الوقت لصدور بطاقة جديدة. وهذا يعني أن عليّ أن أحمل معي نقودا طوال الوقت، وأن أتردد بكثرة على البنك لكي أسحب منه مباشرة ما أحتاجه. وقد تأخر صدور البطاقة كثيرا، ثم حصلت مشكلة في الرقم السري، وعانيت مع هذه المشكلة حوالي شهر!! وكانت هذه أسوأ النتائج التي ترتبت على عملية السرقة، أكثر حتى من ضياع الهاتف الجوال.

كما قلت بداية كانت تجربة صعبة، لكنها علمتني الكثير، وأهم ما تعلمته منها أن لكل مشكلة حلاً، ويمكن للمرء أن يتدبر أموره بنفسه. هذا أمر تعلمته بعد عشرة أشهر من إقامتي في بريطانيا، ولم أتعلمه خلال حوالي سنوات طويلة قضيتها مرفهة في بلادي!

■ فاطمة.. صديقةٌ من القطيف ■

لم تكن صديقتي القطيفية صديقتي أنا ابتداء، بل كانت صديقة لشقيقتي أثناء إقامتها في بريطانيا للدراسة، كانت تكبرني ببضع سنوات، ولكنني نادرا ما شعرت بفرق.. أي فرق معها. لقد توثقت علاقتي معها، بالرغم من أنها تعيش في مانشستر، وأنا في الجنوب في هاتفيلد. زارتني وزرتها، والتقينا عدة مرات، في المدينة المدهشة التي نحبها (لندن) وكان لنا فيها دائما أحلى وأغلى الذكريات.

المميز في صداقتي معها هو أنها كانت صداقة حميمة، مع فتاة شيعية من بلادي، من القطيف التي لا أظن أني سمعت بها سوى في المرحلة الثانوية أو ما بعدها. فهي بعيدة بعيدة.. في أقصى الشرق وأنا في جدة في أقصى الغرب. كانت تجربة جميلة وثرَّة، حيث اكتشفت أنني قادرة على إنشاء صداقة قوية، وليس علاقة عابرة مع فتاة شيعية، في هذا العصر الذي بلغ في التعصب للمذهب مداه، والتعصب الطائفي لدى كلا الفريقين

أقصـــاه. لا سيما في ظروف غزو العراق وما تلاه، إضافة إلى الدور الذي أداه الإنترنت في إذكاء الروح الطائفية بشكل رهيب.

أعرف بأنني لم أكن يوما طائفية، وأقمت عدة علاقات إيجابية في الإنترنت مع بعض الشيعة، ودخلت معهم في حوارات فكرية ثرّة، دون أن أتحرك عن مبادئ وقناعتي قيد أنملة، ودون أن أسمح لأحد أن يحقر أي رمزٍ من رموزي. فالذوبان شيء، والتعايش شيء آخر، وهكذا كان الحال مع صديقتي هذه. ظلت كل واحدة منا تتجنب نقاط الخلاف، ونحفظ لبعضنا حق الاختلاف، وحق الاحترام. وفي المرة الوحيدة التي تحاورنا فيها عن موضوع طائفي، تم الأمر بهدوء شديد، واستمر بهدوء، وانتهى بهدوء. وانتهينا بالاختلاف الذي بدأنا به، لكن من دون أحقاد أو ضغائن، ودون أن يرتفع صوتنا، أو تتغير ملامحنا! حقا على بعض الرجال أن يتعلموا من بعض النساء أدب الحوار!

أكثر ما تعلمته من صداقتي لها.. هو أن الفتاة السعودية هي الفتاة السعودية.. في جدة أو في القطيف، الأفكار نفسها، وكذلك الأحلام.. والولاء والإخلاص للوطن.. والحنين إليه. والشكوى من القوانين المحلية، والعادات الاجتماعية، والقيود

العائلية.. والآمال.. بالحرية وبالإصلاح. فالمواطن هو المواطن.. ولا أعتقد أن للخصوصية المذهبية ذلك الأثر الكبير في القضايا الوطنية الكبرى المطروحة كالمرأة والبطالة والإصلاح والحريات.. إلخ. ولذلك فمن الأفضل أن يتكلم الجميع بلسان واحد.. لسان كل الوطن.. بدلاً من اللسان الطائفي والمناطقي.

كانت قد أنهت دراستها وتستعد للسفر، وكانت هذه ربما الفرصة الأخيرة التي قد أراها فيها، ولذلك ضحيت ببحثي هذا اليوم، وذهبت لأقابلها في لندن، وأمضينا معاً يوماً جميلاً.

فقد قررنا القيام بجولة في لندن (كسائحتين) تزورانها للمرة الأولى، وتحرصان على مشاهدة أهم معالمها السياحية. فكان أن اخترنا برنامجا يشمل القيام بجولة على أهم المعالم عن طريق الحافلات المكشوفة، وينتهي برحلة بحرية في نهر التايمز. وفي هذه الرحلة أردنا أن نلتقط صورة مميزة، لكن صديقتي لم تفهم قصدي! كان شكلنا مضحكاً قليلاً، حتى أن الرجل الذي التقط الصورة قال لنا: "يبدو أنكما تريدان أن تلقيا بنفسيكما من المركب" وانخرطنا في الضحك، ونتج عن ذلك صورة ولا أروع! أنهينا رحلتنا في الهايدبارك، ثم في إدجور رود حيث تناولنا عشاءنا الأخير معاً قبل سفرها، في مطعم لبناني، ولم نتوان أيضاً عن التقاط الصور هناك.

ثم حان وقت الفراق.. احتضنا بعضنا، وقلنا الكثير من الكلمات الجميلة، مرددين بأننا سنبقى على العهد مهما بعدت المسافة، وتغير الزمن.

لقد أحببتُ فاطمة كثيراً.. أحببتُ فيها.. أنها من النساء اللاتي يحببن الفرح ويغمرنك به، من اللاتي يحببن المغامرة، لطيفات ودودات وغير معقدات. لا يصنعن من الحبة قبة، بل يتركن الأمور تمر بسلاسة ويسر. لا يأخذن الأمور بحساسية أو يؤولن الكلام على هواهنّ. في صحبتهن تتفجر طاقات المرء، والضحكة تعلو على كل ما سواها، يخرجن الطفلة من أعماقنا.. ويحررن الشابة.. ويطلقن المراهقة.

حقيقة شعرت بالحزن هذا اليوم.. وأنا أقول وداعا لهذه الفتاة القطيفية الحلوة كالشهد.. وداعاً يا أيامنا الجميلة.. فوجودها هنا صنع بعضاً من أجمل ذكرياتي في بريطانيا. كنتُ أمني نفسي بلقاء في الوطن، بالرغم من أنني سأعود إلى جدة وستعود هي إلى الرياض من أجل العمل.. لكن لعل وعسى.

■ على الهواء مباشرة! ■

على الرغم من أنني كتبت الكثير من المقالات التي نشرت في مطبوعات متفرقة، وعلى الرغم من أن رؤيتي لاسمي (مرام عبدالرحمن) مطبوعاً في الجريدة، قد أصبح أمراً عادياً للغاية بالنسبة لي، إلا أن سماع صوتي عبر وسيلة إعلامية هو أمر مختلف تماماً! وهذا ما حصل معي هذه المرة، ودون تخطيط سابق.

يبدو أن تسليمي لأطروحتي جعلني أحس بأنني سأودع هذه البلاد قريباً، وبناء عليه فعليّ أن أستغل أقصى درجات الحرية المتاحة لي، حتى ذلك الحين. وبينما كنت أتصفح الإنترنت، لم أقاوم هذه المرة إغراء الدعوة للمشاركة في أحد برامج البي بي سي، وهو برامج (حوار)، للحديث عن (جرائم الشرف العربية) فوضعت رقم هاتفي الجوال، ثم نسيت الموضوع تماما. ثم فجأة وبعد مرور عدة أيام، وبينما أنا أتسوق، تلقيت فجأة اتصالا هاتفيا أجبت عليه، وفوجئت بالمتصل يخبرني بأنه من البي بي

سي، وأنني سأكون على الهواء مباشرة إن رغبت في المشاركة، بعد دقيقة من الآن! ترددت واضطربت ثم قررت أن أوافق، لأنها تجربة مغرية من جهة وإن كانت مخيفة بعض الشيء، ثم قلت لنفسي إلى متى نصمت عن الجهل والتخلف؟ وعن هذه العقوبات الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان! فتصميمي على الدفاع عن بنات جنسي، وعن صورة الإسلام المغلوطة، قضت على آخر صروح المقاومة لديَّ، وهكذا شاركت!

كنت المرأة الوحيدة الشجاعة كفاية على ما يبدو لتتحدث في هذا الموضوع، من بين حوالي سبعة رجال! وقد كانت مشاركة جيدة وجريئة من وجهة نظري، ولكنني ألوم نفسي قليلاً على عدم ترتيب الأفكار، وبعض الأخطاء اللغوية، وعلى الاندفاع والحماسة الزائدين، لكنني سأسامح نفسي وأرجعها لعامل المفاجأة وقلة الإعداد.

حتى هذه اللحظة لم أستمع إلى الحوار عبر الإذاعة، لعدم قدرتي على التقاط موجات البي بي سي العربية.. لكن أهلي استمعوا للإعادة، بعد أن أرسلت لهم رسائل أبلغهم بذلك. وقد علمت منهم أن أبي وخالي وأختي قد استمعوا، فشعرت بالخجل، لكن أبي قال: "كنتِ رائعة".. وليس أمامي إلا أن أصدقه!

■ بالحكمة والموعظة الحسنة(*) ■

أمضينا ليالي طويلة، في الحديث حول موضوع الدين، وحقيقة هذا الوجود، وعلاقتنا بالخالق. كانت (إيريني) فتاة يونانية في التاسعة عشرة، لكنها كانت ذات عقل منفتح لا يفتأ يفكر ويبحث عن الحقيقة، وكنت أنا فتاة سعودية عشرينية، قادمة من مجتمع إسلامي محافظ معتزة بدينها، متحمسة لشرح هذا الدين وتصحيح ولو ١٪ من الصورة المغلوطة عنه، وفي هذا الوقت العصيب بالذات، في صيف ٢٠٠٣م الساخن.

أردت أن أخبرها عن الإسلام لكنني لم أرد أن يكون ذلك دعاية دينية فجة، ومكشوفة، لأن هؤلاء القوم يجب أن نخاطبهم بالعقل لا بالعواطف. ويجب أن نجعل حوارنا معهم حواراً مفتوحاً غرضه إطلاع الناس على الحقيقة، وليس إجبارهم على الدخول في الدين، أو الاحتيال عليهم، بإخفاء بعض الحقائق وتحويرها،

(*) نشرت هذه القصة بصفتها واحدة من ثلاث قصص عن التسامح في العدد ١٢١ من مجلة المعرفة (ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - مايو ٢٠٠٥م)، تحت عنوان (ثلاث قصص تسامحية: حين تحدثنا بلغة آدم وحواء).

لنسحبهم للدين ثم ليكتشفوا أننا كذبنا عليهم، وهذا للأسف من أخطر السلوكيات على الدعوة، وهذه الخدعة قد لا تنفر الناس من الدين فحسب، بل تجعلهم يكرهون هذا الدين وأهله لأنهم ظهروا لهم منافقين وانتهازيين.

صديقتي اليونانية العزيزة (إيريني) قالت لي، إنها يُفترض أن تكون مسيحية أرثوذكسية، لكنها ملحدة! أما سبب الإلحاد فهو ما ذكرته هي عن الفساد الشديد في الوسط المسيحي في بلادها من قمة الهرم الكنسي، وصولاً للرهبان الصغار. لكن في الحقيقة -وعبر ما لمسته منها- أنها غير مقتنعة بإلحادها، وأن أسئلتها الكثيرة والدقيقة لي، تدل على أنها تبحث عن جواب ما، عن حقيقة ما.

ذات ليلة قضينا ثلاث ساعات ونحن نتحاور، أنا وإيريني وصديقة يونانية أخرى، وصديقة أيرلندية من أصل عربي. كادت عينا (إيريني) تدمعان آنذاك.. وهي تقول: "كم أتمنى لو أنني أؤمن بإله وآخره.. لأنني سأضطر بلا شك -ذات يوم- إلى دفن أحب الناس إليّ. كوالدتي.. أريد أن أكون مطمئنة أنها بين يدي ربٍ رحيم". عندها أحسست لأول مرة بتعاطف غريب معها، ومع كل غير المسلمين. نعم اختفت صورة الكافر العدو الذي يجب أن يُحارب بالنسبة لعوام الناس (وليس بالنسبة للجيوش الجرارة

التي تغزو بلاد المسلمين ولا للسياسيين المجرمين). وانقلبت نظرتي إلى نظرة الطبيب الذي ينظر إلى المريض مشفقاً عليه، وهو يرجوه أن يتناول الدواء، الذي يحتوي على العلاج الشافي بأمر الله وعونه. نعم دعاة لا قضاة.. دعاة لا إرهابيين. فالبشرية تائهة تبحث عن دواء.. عن علاج.. عن مخرج.. عن الحقيقة!ونحن نملك الحل ونملك الجواب، لكننا لم ننفع به أنفسنا، ولم نعلمه للآخرين علهم يستفيدون منه.. ويستطيعون تحقيق ما لم نستطع نحن فعله..

من أجمل ما قالته لي هذه الفتاة الرائعة، بعد أن تناقشنا حول نظرية دارون والخلق، ووضع المرأة في الإسلام، والقيود التي تراها هي على هذه المرأة :" أنتِ ملتزمة دينياً كما أرى.. لكنك سعيدة ولست تعيسة كما كنت أتخيل المتدينين عموما".

كنت أشعر بالسعادة وأنا أشاهد الدهشة والفضول على وجوههن، كذلك وأنا أسمع صيحات الإعجاب، حين حدثتهن عن بعض شرائع الإسلام والحكمة منها، خاصة الأمور الصغيرة، التي تبدو عادية لنا، لكنها بالنسبة لهن تثير الإعجاب. كالطهارة، والأخلاق الإسلامية، وحقوق المرأة في الإسلام، وعلاقة الرجل والمرأة الخاصة، وكيف أن لكل حقوقاً وواجبات، وغيرها. وقد

سمحت لهن برؤيتي وأنا أتوضأ، ورأيت الدهشة البدائية الصادقة على وجوههن.

ساعات طوال لا أظن أنها مضت هدراً فالرسول ﷺ يقول: (بلغوا عني ولو آية)، كما أنني تعلمت منهن أشياء جديدة عن المسيحية، وعن اليونان وشعبها، وكلها معارف مفيدة لي من كل النواحي ومنها الناحية الدعوية.

أحسب اليوم أن الحوار بين الحضارات ممكن إن صلحت النيات.. كنيتي ونية صديقتي هذه.. والتعايش بين البشر ممكن كذلك.. فقد عشت مع فتيات من مختلف الملل والأعراق في بيت واحد، ولم أتنازل عن ديني قيد أنملة، ولم يفعلن هن كذلك أيضاً. تجار الحروب وحدهم هم الذين يرفضون الحوار، ويشجبون التعايش، ويباركون الصراع. أو أولئك (من طرفنا) الذين أساؤوا فهم الدين وهدفه.. كما لم يفهموا مقاصد الشريعة العليا.

* * *

لقد أثرت حياتي المستقلة في بريطانيا- على علاتها وصعوباتها- في شخصيتي كثيراً، وأكسبتني ثقةً ومعارف، وزادتني اطلاعا على ثقافة الآخرين وحياتهم.. وآمل أن أغادرها.. بإيمان أعظم بربي.. وبعلم وشهادة.. وثقافة وخبرة.. وثقة بالنفس.. ورؤية أشمل وأعمق لنفسي وللناس وللعالم من حولي.. وأتطلع للمستقبل بتفاؤل.. وبكثير من الأمل..

الملحق

■ ولبول جونسون.. أعتذر(*) ■

طفح الكيل! ولم أعد قادرة على السكوت، فالصمت اليوم بالنسبة لي جبن وعار. لقد كتبت كثيرا ضد التغريب، ضد تغيير القيم والمبادئ، ودافعت عن المناهج وعن المراكز الصيفية، وشجبت الاحتلال الأمريكي للعراق، ورثيت الشيخ البطل أحمد ياسين، وكتبت ضد الظلم لأي كان، وناصرت السعودة، وانتقدت تمييز رواتب الغربيين عن السعوديين، وكنت مقتنعة تماما بكل كلمة كتبتها، وهذا هو حالي أيضاً في مقال اليوم. فأنا أعتقد بأنه كما كانت عندي الشجاعة لأشجب مآسي أبو غريب، وإجرام الصهاينة، وإدارة بوش التي نكبت العالم بالحروب والعدوان، فإنه يجب أن تكون عندي الشجاعة لأقف اليوم وأشجب مقتل هذا الرجل.. بول جونسون.

أريد أن أعتذر له، ولزوجته المنكوبة، ولابنه، ولعائلته، وللشعب الأمريكي الصديق، عما حصل. ولأقول إن قتله هو جريمة لا تقرها شريعة، ولا مبدأ، ولا خلق. أعتذر.. لأنه قُتل

(*) نشر هذا المقال في صفحة الرأي في صحيفة الوطن السعودية وتاريخ ٥ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ - الموافق ٢٤ يونيو ٢٠٠٤م.

في بلدي، ولم أستطع أن أمنع ذلك ولو بقلمي، فقد قتلوه قبل أن تتاح الفرصة لي، لأكتب مقالا أناشدهم فيه بكل مقدس أن لا يقتلوه، ولأنه قتل بيد أناس ينتسبون إلى بلدي. أناسٌ هان عليهم كل شيء، حتى الوطن، فأخذوا يسلبونه أعز ما يملك بعد كعبة الله، ومسجد رسوله، أمنه وأمانه، اللذين تغنى بهما طويلا، والذي هو دعوة أبينا إبراهيم، فكيف لا تهون عليهم أيها الضيف المعاهد؟ إنهم يائسون ومهزومون.. ولهذا تجردوا من كل إنسانية حتى في طريقة قتلك!

أحسب نفسي قارئة جيدة للتاريخ الإسلامي ومع ذلك، لم أرَ نظيرا لهؤلاء. لقد كان المسلمون غالبا أمة منتصرة، فكانت أخلاقهم دوما أخلاق الفرسان، في كل فتوحاتهم، وكانوا دوما أمة القرآن مهما بغى الآخر. لقد أسال الصليبون الدماء شلالات في بيت المقدس، وسجل التاريخ يومها أكثر المشاهد بشاعة في قتل المسلمين وتعذيبهم، وتخضبت الخيول حتى الصدور بالدماء، وعندما أمكن الله المسلمين منهم، لم ينتقم صلاح الدين، بل كان رجلاً، فارساً ومسلماً لذلك فإن التبرير الذي يسوقونه بأنهم ينتقمون لأخوتهم (في العراق وفلسطين) مفهوم ولكنه غير مقبول عندنا نحن المسلمين، فإذا كان عدوك حقيراً، فأنت صاحب رسالة سماوية، ولديك دستور تمشي عليه، ولا يوجد دليل من القرآن، أو السنة، أوالتاريخ، يبرر قتل الرجل.

يقولون إنكم نتاج مدارس متطرفة، حسنا فأنا أظن أنكم كنتم طلبة غير نجباء. ففي المدرسة علموني في منهج (الحديث) بأنه من السبعة الكبائر " قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق"، والإسلام قال (النفس) ولم يقل (المؤمن). وفي منهج التاريخ، درست وصية أبي بكر رضي الله عنه للجيش، وهي تحث على احترام البشر والشجر والحجر! فإذن ليس لكم أيضا موقع من الإعراب لا في ديننا ولا في دروسنا، إلا أن يكون معلموكم من الخارجين على النص!

إنني أشعر بالخجل،لأنني شعرت بأنني لم أكتب بالتفصيل إبان أو قبل أو بعد الحرب على العراق، عن موقف الشعوب الغربية، إذ كنت في أوروبا يومها، وشهدت بنفسي مواقف الناس هناك. للأسف فهناك صورة نمطية لدى الغرب عن المسلمين، وفي الوقت نفسه هناك صورة نمطية عن الغرب هنا. فدائما نسمع بأنهم شعوب بلا أخلاق ولا غيرة، نساؤهم فاجرات، ورجالهم سكارى، وأنهم يكرهون الإسلام والمسلمين. لكن هل توقفنا مرة لنبين بأن ليس كل الغرب كذلك؟

العام الماضي عندما بدأت التهديدات تأخذ طريقها للجد على العراق، خرج البريطانيون رجالا ونساء، أطفالا وشبابا، ليقولوا: (لا حرب تحت اسمي)، (لا لحرب من أجل النفط)،

(بوش وبلير مجرمان كهتلر تماما)، (لا للحرب على العراق.. والحرية لفلسطين). في مظاهرة مليونية، تكررت ثلاث مرات أثناء إقامتي هناك في: سبتمبر، فبراير، وأبريل. وأتحدى أن تكون مظاهرة مثلها قد خرجت في أي دولة عربية أو مسلمة.

أيضاً في جامعتنا، أقام الطلبة مكانا لجمع التواقيع، ولتوزيع الشعارات التي تندد بالحرب، وكان أستاذ علوم الحاسبات السويدي يجلس كل يوم تقريبا في مقهى الجامعة، ليعرض صورا عن ضحايا أمريكا، ويشرح للناس مدى عدم شرعية الحرب، ويبيع قمصانا، تحمل شعار لا للحرب. أحيانا لم يكن يعبأ به أحد، لكنه ظل هناك، يحمل لوحاته وقمصانه، ومبادئه معه أينما حل!

هناك حقيقة يجب أن يدركها العرب والسعوديون بصفة خاصة، وهي أن معظم الحكومات في عالم اليوم، حتى تلك التي تنتمي إلى الديمقراطية العريقة، لا تمثل شعوبها. وأنا شاهدت ذلك بنفسي، فأنا شخصياً لم أقابل بريطانيا واحدا كان مع الحرب. وكان المعارضون يتصلون على الإذاعة قبل وأثناء وبعد الحرب، ويعارضونها، حتى يضطر المذيع لقطع بعض المكالمات، بحجة مراعاة مشاعر أهالي الجنود!

لقد استمعت إلى سيدة بريطانية في الهايدبارك، تصرخ قائلة: (إنني أشعر بالعار لتاريخ بلدي الإستعماري.. وأشعر

بالعار أكثر لأنها تعود لهذا الإرث اليوم)، وسمعت صوت عمدة لندن يجلجل رافضا الحرب، ومنددا بحكومته!

وهكذا إذن فهناك صورة أخرى مشرقة اليوم لهذه الشعوب الغربية، متمثلة في فئاته العامة، لا في الساسيين وبعض المحللين والاقتصاديين العنصريين. نعم لا أنكر بأنه خلال سنة واحد تعرضت بضع مرات، إلى بعض العبارات من العنصريين مثل: (يا باكي عودي إلى بلدك)، وذلك لأن كلمة (باكي) تطلق على الباكستانين هناك، وهم يعتبرون كل محجبة باكستانية. لكنها كانت حالات شاذة، إما من مراهقين، أو من أشخاص محدودي الثقافة، وحصلت هذه الأمور في الشارع، وليس في أروقة الجامعة، أو في أي مكان عام آخر محترم، وفي مقابل هؤلاء كان هناك أضعافهم ممن أبدوا تعاطفا كبيرا معي.

أنا اليوم أشعر بالضيق لأنني تأخرت في كتابة هذه الكلمات، وإلا فكان يجب أن أكون في معارضتي للإرهاب ضد الأجانب، بشجاعة طلاب مدارس بريطانيا، الذين خرجوا ضد الحرب في ثاني أيامها، وتركوا مدارسهم، ليصرخوا (لا للحرب.. أعيدوا الجنود). لقد فعلت شعوب أوروبا وحتى أعداد كبيرة في أمريكا، كل ما في وسعهم ليقولوا للعالم هذا رأينا في ما يجري. لكن نحن لم نفعل ذلك، أنا لم أفعل ذلك، وطلابنا لم يفعلوا ذلك، ومثقفونا وكافة شرائحنا لم تفعل ذلك. فقد كنت أتمنى لو

خرجت مظاهرت في كل مدن المملكة، تشجب الإرهاب، وتعلن حمايتها للضيف والجار، وتطالب بإطلاق صراح جونسون قبل وفاته. وكنت أتمنى لو سار السعوديون والأجانب يدا بيد حيث يوجدون، بعد مقتله، ليؤكدوا وحدتهم، وتضامنهم مع عائلته، وليرفعوا شعارات تؤيد التعايش والصداقة والزمالة وتشجب الإرهاب والعنصرية والكراهية. كيف للعالم أن يعرف أن السعوديين ضد الإرهاب، والناس في الداخل لا تسمعهم صوتها؟!

إنني أكره الإرهابيين في الله، أفلا تكفي خيبتنا الكبيرة على كل الأصعدة؟! فشل عربي ذريع في كل شيء، حتى في الرياضة (ثمانية - صفر!)، لم يبق عندنا شيء نباهي به! فإذا أخذت من المسلم دينه وأخلاقه.. ومن العربي إكرامه لضيفه.. واحترامه للعهود والمواثيق.. فماذا يبقى له؟

أخيرًا.. للضيف المغدور به بول جونسون، ولعائلته الكريمة وخاصة زوجته.. إليكم أعتذر وأعلن ألمي واستنكاري.. وأود لو أنني استطعت أن أفعل شيئا.. لكن الله يشهد أنِّي لا أملك سوى دموعي وقلمي.. وقد بذلتهما بإيمان وقناعة.

■ نواصبٌ وروافض![*] ■

في مقالي الاسبوع الماضي تحدثت عن المؤتمر الذي كان بعنوان (عالم واحد.. ودينان)، والذي دعا إلى تعايش حقيقي وتآلف بين المسلمين والمسيحيين دون أن يمس ذلك بعقيدة كل طرف تماشيا مع مبدأ (الاحتفاء بالاختلاف.. مع البقاء على الإيمان) أو (Celebrating Difference, Staying Faithful).

سأنتقل اليوم إلى موضوع أخطر، وخصوصا هذه الأيام، وهو القضية المذهبية بين المسلمين. فربما نحن بحاجة إلى مؤتمر شعبي اسمه (دين واحد.. ومذهبان)، وطبعا أنا أقصد هنا المذهبان السني والشيعي. فقد أصبح الاختلاف بين المذهبين ظاهراً للعيان حتى للأوروبيين، الذين صاروا يسألوننا إن كنا شيعة أم سنة؟!

عاش معظمنا فترة طويلة، لا يعرف الكثير عن المذاهب الأخرى، ولا عما يعتقده أتباع كل مذهب في الآخر ثم اقتحم

(*) نشر هذا المقال في صفحة (الرأي) في صحيفة الوطن السعودية في ٢٨- شوال ١٤٢٨هـ الموافق ٣٠ نوفمبر- ٢٠٠٥.

الإنترنت العالم العربي والإسلامي فجأة، لنكتشف فجأة بأننا كنا نجهل الكثير عما يجري حولنا أو عن الناس من حولنا. كان أول ما لفت نظري -بصفة شخصية- في منتديات الحوار، هو هذه المعركة الشرسة بين السنة والشيعة. سمعت لأول مرة مصطلحات مثل (ناصبي) وعرفت أن قومي من أهل السنة يصنفون لدى البعض تحت هذا المسمى، وعرفت في المقابل بأن الآخرين من الشيعة هم (الروافض)، وأن كل فئة تعتبر الفئة الأخرى أشد كفراً من اليهود والنصارى على حد قولهم، مما نتج عن ذلك علاقة غاية في التوتر ومعارك لا يمكن أن تخرج منها بقلب صاف. فكل طرف يستميت في تحقير الطرف الثاني وتكفيره وتصويره على أنه ابن شرعي لإبليس!

ولما كنتُ من مجموعة لا ترى هذه التعميمات الجائرة، ولا تعتقد بأن من يخالفني فهو عدوي، ولا ترغب أصلا في الدخول في مهاترات عقدية، لأننا لن نمحو اليوم قضايا عمرها ١٤٠٠ سنة، فقد وجدت نفسي محل سخط وغضب من قبل كلا الفريقين. ولعله من الطريف أن أذكر أنني اتهمتُ بأني رافضية ووهابية في الوقت نفسه. وتطورت القضايا من مذهبية إلى سياسية، فصارت السعودية في مقابل إيران في هذه المعارك.

وهكذا وجد الكثيرون في الإنترنت فرصة لنشر الكراهية، وفتح جروح مندملة في أمتنا، وتم إذكاء روح العداوة حتى عند

أناس لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه. وستأتي بعد ذلك حرب العراق، وما يجري فيه اليوم، فتكاد أن تضع حداً لأحلام أولئك الذين حلموا بتحقيق نوع من التآلف المبني على أدنى درجات الاحترام، فقد كنا نحلم فقط أن تتوقف تلك الاتهمات البذيئة التي يتبادلها الطرفان.

لقد كان العراق العريق بأطيافه المتعددة نموذجاً للتعايش الحقيقي الذي يصل حد المصاهرة بين أتباع أكبر مذهبين إسلاميين، فصار اليوم أقرب من أي دولة أخرى ليصبح ساحة لحرب أهلية. ولأننا نتحسس الخطر القادم من الشمال، إذ ما اندلعت حرب أهلية صريحة -لا قدر الله-، على أسس طائفية ظاهريا، ولأجل مصالح دنيوية وصراعات سلطوية، كما هو الحال -دائماً- في حقيقة الأمر، كان لا بد من دق أجراس الخطر.

هذه المرة أنا لن أخاطب المسؤولين من أجل أن ينظموا مؤتمرات من أجل تشجيع التعايش السلمي بين المذاهب، وإن كنت أطلب دعمهم المعنوي، لكن خطابي هنا للأفراد. فما أعظم النتائج التي تتمخض عن سلوك إنساني بسيط كالابتسامة أو التحية، فهناك من يبخل حتى بهذه على الآخر.

أنا شخصياً لديَّ نموذجان أعود إليهما كلما كاد المد الطائفي يغمرنا ويحملنا معه، وكلما قرأت كلاماً مسيئا لمذهبي وأهلي

وبلدي من بعض الجهلة. الأولى، هي فاطمة، صديقة سعودية من القطيف، فتاة لم ألتقِها أول ما التقيتها إلا في لندن. أستطيع أن أقول إنها واحدة من ألطف وأعز الصديقات اللاتي عرفتهن في حياتي. وأن ذكرياتي معها حتى الآن هي من أجمل الذكريات لي في بريطانيا، رغم مرور أكثر من عامين على عودتها إلى السعودية. فقد تشاركنا القصص والأحلام والمشاعر والمخاوف، كما تشاركنا الفرح والمرح والضحكات. ضحكنا على أنفسنا وعلى لهجاتنا، وعلى القصص التي يتبادلها قومنا عن بعضهم. أكاد أجزم أنني أخبرتها أموراً لم أخبر بها قريباتي، لأنها كانت أقرب لفكري منهن. لم أشعر للحظة بأن صديقتي هذه غريبة عني، كانت سعودية مثلي تماما، تحب بلدها وتتمنى أن تراه متقدماً مزدهراً، وبالرغم من أنها مرت ببعض المواقف غير المستحبة من قبل بعض المتطرفين إلا أن ذلك لم يزعزع إيمانها، ولم يجعلها تتخذ مني أنا (كسنية) موقفاً.

أما النموذج الثاني، فهو لأحد القراء الذي دأب على مراسلتي منذ أن بدأت الكتابة تقريباً، فأبو فاطمة هو رب أسرة من الأحساء، وهو أستاذٌ في إحدى المؤسسات التعليمية، وكثيراً ما اتفقت آراؤنا حول الكثير من القضايا الوطنية، ولم أشعر للحظة بأنه مختلف عن أي مواطن سعودي آخر. بل لم أعرف أنه

شيعي، لولا أن جاءت مناسبة لقول ذلك. حين أقرأ رسائله لا أرى فيها إلا ذات الهموم التي يحملها المثقف السعودي في الرياض أو جدة أو أبها، كوقوف التقاليد في وجه التقدم، أو وضع المرأة في المجتمع، أو حال التعليم أو البطالة في البلد. فهنا مواطن يحب بلاده، فنحن لا نقلق إلا على ما نحب، وعلى من نحب.

أجد أنه من واجبي اليوم أن أتحدث عن هذه النماذج، كما أنني واثقة من أن فاطمة وأبا فاطمة سيوضحون للناس من جانبهم، بأنه ليس كل السنة كهؤلاء الذين يشتمونهم من وراء الحجب على الشاشة. فأحيانا يسهم سلوك طيب من شخص على تغيير صورة أمة. إنها دعوة ليبدأ كلٌ منا بمحيطه إن كان فيه أناسٌ من غير مذهبه، فيدعو للقاء ات منتظمة، يجتمع فيها البعض ويتعارفون ويتآلفون ويناقشون همومهم المشتركة، مع تجنب الحديث تماماً في الموضوعات المذهبية الجدلية قبل أن تصبح العلاقات وطيدة (إن كان ما من مناقشتها بد).

هذه العلاقات الإنسانية التي سننشئها، سواء بين الكبار أو الصغار، في المدرسة أو الشارع أو الجامعة أو العمل، في أي مكان من بلاد العرب، وخاصة في الخليج والعراق، هي التي ستقف كدرع يحمي الأوطان، حين يرفع أمراء الحروب راياتهم. وهي التي -بفضل الله-، لا تزال تحفظ الوضع في العراق من

الانفجار رغم كل شيء، ورغم مخططات العدو المستعمر الذي تعمد أن ينخر في النسيج الوطني منذ أول يوم ليجعل العراقيين يقتل بعضهم بعضاً بأنفسهم، من خلال تشجيع طرف على حساب طرف آخر.

لا لا يكفي ألاّ تكون عنصرياً ولا طائفياً، بل عليك أن تحاول نشر روح التسامح من حولك. تحدث بإيجابية عن الآخر، وأسهم في إيقاف مروجي التعصب عند حدهم حتى لو تتطلب الأمر أن تغادر المكان. وإن كنت شيخاً أو إماماً أو سيداً أو مرجعاً أو مثقفاً أو أستاذاً أو وجيهاً أو أباً أو أماً، فحينها أنت قدوة لفئة من الناس، وبالتالي فواجبك أكبر وحملك أثقل. وتذكر بأنه لا يمكن أن يكون رضا الله في إيذاء مخلوق أو تشجيع إيذائه دونما ارتكابه لحد من حدود الله، كما لا يمكن أن يكون إفشاء السلام، وعمل الخير، وحب الناس ومساعدتهم، موجباً لسخط الله أيّاً كانوا.. فالخلقُ.. كل الخلق.. عيال الله.. وأحبهم إليه أحسنهم لعياله.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٧
مقدمة	٩
عدنا.. يا بريطانيا.. والعود أحمد!	١٥
حرية!	٢٠
مظاهرات ١٠١	٢٣
وقلتُ : "الفلسطينيون ليسوا هنوداً حُمراً!	٢٥
فارسة.. للمرة الأولى!	٣١
يوم في الحياة الحقيقية!	٣٤
ويبقى الإنسان.. هو الإنسان	٣٨
(فتيةٌ آمنوا بربهم.. وزدناهم هدى)	٤٤
سيدتي الجميلة MY FAIR LADY	٤٧
فيلم من بطولتي (الحق بالقطار إن استطعت!)	٥٢
حين ترعى الجامعة الإبداع وتنميه	٥٤
الحرب العدوانية بدأت.. والصواريخ تُلهب سماء الزوراء! ...	٥٧

الموضوع	الصفحة
بشائر النصر تلوح في سماء الهزيمة العربية	٦١
وسقطت عاصمة الرشيد	٦٣
على ضفاف بحيرة الهايدبارك	٦٩
ولهذا قالوا: الضربة التي لا تقتلك.. تقويك!	٧٥
فاطمة صديقة من القطيف	٨٠
على الهواء مباشرة!	٨٤
بالحكمة والموعظة الحسنة	٨٦
الملحق	٩١
ولبول جونسون.. أعتذر	٩٣
نواصبٌ وروافض!	٩٩